FLOWERS SMELL OF DEATH

فريق
متميزون
E-BOOK

زهور برائحة الموتى

أمل العشاوي

إبحار

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

زهور برائحة الموتى

رواية..

أمل العشماوي

إهداء..

إلى كل مَنْ يُحلق في سماء عوالم خيالية

لا تعيش و لا تتنفس إلا بداخله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنويه

هذا العمل مجرد عمل أدبي من نسج خيال مؤلفه، وأي تشابه بينه وبين أحداث وأماكن واقعية، هو من قبيل الصدفة وضرورات العمل الإبداعي.

"ثمة أمور يحسن أن تبقى تحت الغطاء، ولربما كان ثمن الحقيقة نهايتك، لأنّ الشمس إصر على كاهل الواهنين".

أحمد خالد توفيق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[1]
نسرين

مستشفى مدينة نصر العام - 2025

الساعة العاشرة صباحًا وخمس وعشرون دقيقة

شعرتُ بصداع رهيب يدقُّ رأسي كمطرقة، واخترق وعيي كلمات مبهمة، يتداخل فيها صوتان: الأول رجولي خفيض، والثاني نسائي رقيق. ببطءٍ وتردُّدٍ، فتحتُ عيني لأجد شعاعًا أبيض ساطعًا يضرب مقلتي، ويزيد من آلامي سُوءًا.. حاولت شفتاي أن تنطق لكني أحسست بدورانٍ حاد وكان حلقي جافًا.

ناديتُ طالبةً الماء فأتى دكتور مُسِن قصير القامة تتبعه فتاة مليحة الوجه، تلبس رداء الممرضات الوردي، ساعدتني على رفع رأسي قليلًا، ومدت كوب الماء إلى فمي فعببته على جرعتين، ثم ألقمتني بعض الأقراص البيضاء وسقتني مجددًا.

قُلت متسائلة:

- أين أنا؟ وماذا يحدث؟

سألني الدكتور باهتمام:

- هل تشعرين بالألم؟

- نعم صداع مميت.

مددت أصابعي وفركت جبهتي بلطف، ثم حاولت الجلوس وحدي فداهمني دوارٌ حاد مع شعور بالغثيان. وعندما استعدت بعضًا من قُواي الذهنية ودارت عيناي في الغرفة أدركت بسهولة أين أنا: كنت مستلقية على سرير أبيض في غرفة صغيرة مغمورة بالضوء، وكان الهواء عابقًا برائحة الكحول الطبيّة فقدرت أني في مستشفى، ومن الجدران المشقوقة الرطبة وحجم الغرفة الصغير وكآبة المنظر عمومًا أدركت أني بمستشفى عام ضعيف المستوى.

تسارع نبضي، فازدادت الآلام من سرعتها، وسألت بِحِيرةٍ مضاعفة:

- أين أنا؟

اقترب الدكتور، وقال:

- اهدئي.. أنتِ في مستشفى مدينة نصر.

هتفت باندهاش:

- مدينة نصر! في القاهرة.. وكيف وصلت إلى القاهرة؟

سحب الدكتور كرسيًّا، وجلس أمامي يحدق إليّ بنظرة لم أفهم معناها، ثم أخذ يطرح أسئلة عملية بنبرة ودودة:

- ما اسمك؟

فكّرت للحظات، وأردفت:

- نسرين خالد الزهار.

- كم عمرك؟

- ثلاثة وعشرون عامًا.

- وما عملك؟

- طالبة في سنة رابعة، كلية فنون جميلة، جامعة إسكندرية.

تنفس الدكتور الصعداء وبدا راضيًا:

- جيد.. الآن قُلِ لي بصدق ماذا حدث معك في ليلة أمس؟

رحت أفكر بعمق فازداد الألم في رأسي. تأوهت "آه... صداع يا دكتور صداع رهيب".

قاطعني الدكتور برجاء:

- ركزي من فضلك يا نسرين.. ماذا حدث بالأمس؟

استغربت من اهتمام الدكتور ونبرة القلق التي عادت تشوب صوته، لكني تحاملت على نفسي، وأجبرت عقلي على استعادة آخر صورة أتذكرها، وأردفت:

- كنت أحتفل مع صديقاتي برأس السنة في "سلطنة ستانلي".

نظر إلى ممرضته بوجل، وعاد يسألني:

- في أي يوم بالتحديد كان هذا الاحتفال؟

أردفت بنبرة ساخرة:

- رأس السنة يا دكتور.. يعني يوم الثلاثاء.

اتسعت عيناه السوداوان، وعاد ينظر إلى الممرضة:

- نحن في صباح يوم الخميس يا آنسة نسرين.. وأنا أسألك عن ليلة أمس.. عن يوم الأربعاء. فهل تذكرين منه شيئًا؟

كلماته نبهت حواسي أكثر، فاعتدلت في جلستي مستعينة بذراعي المرهقتين، هممتُ بسؤاله عن سبب هذا التحقيق المبالغ فيه لكن نظرته الجادة ونفاذ صبره جعلوني أبلع سؤالي وأعاود التفكير. أغمضت

عيني في محاولة لأتذكر حادثة تعرضت لها أو موقف بعينه كان سببًا في ظهوري الغامض هنا في مدينة نصر.

لكن لا شيء..

غلف الظلام عقلي تمامًا..

وازداد الألم أكثر. صرخت:

- لا أذكر شيئًا.. لا أذكر.

هزّ الدكتور رأسه بوجوم، وقال:

- لا تقلقي.. ستكونين بخير.

نظر إلى الممرضة، وأضاف:

- أنا آسف.. الأمر خارج سيطرتي..

ثم خرج مع الممرضة.. وبقيت وحدي أتخبط بالتساؤلات وأنين الرأس المبرح.. مددت يدي إلى كأس الماء على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، ثم أعدته فارغًا.

طاف بذهني صور متفرقة من الاحتفال: البالونات، الشرائط الملونة، أصناف الحلوى، الموسيقى، صرخة النشوة الممزوجة بالأمل في الثانية عشر مساءً، وكذلك العشرات من الصور المبهجة والطريفة التي التقطت لي مع صديقاتي قبل أن ينفض الجميع، وأعود إلى شقة كامب شيزار برفقة هيام وجويرية، رفيقاتي في السكن، حيث غرقت في نوم عميق أذكر أنه كان خاليًا من الكوابيس.

فكيف إذا وصلت إلى هنا؟ وماذا حدث في يوم الثلاثاء.؟

نهضت ببطءٍ نحْوَ الحمّام الصغير القابع في إحدى زوايا الغرفة، غسلت وجهي ورقبتي، بللت شعري في محاولة لبث بعض الحيوية على وجهي الشاحب وعيوني الذابلة، الهالات السوداء تحيط بهما جراء التعب والتشوش. كنت أرتدي بنطالًا جينز أزرق فاتح وكنزة صوفية خضراء اللون، وعلى طرف السرير والأرض، رأيت معطفي الرصاصي وحذائي الرياضي الأبيض. خليط غير متناسق لا أحبذه من الألوان، فخُيِّل لي أنني كنت على عجالة من أمري..

لحظات وعادت الممرضة وحدها، ورأيت في يدها معطفًا أبيض من القطن الخام الخاص بالأطباء! وكان وجهها شاحبًا رغم نبرتها الهادئة:

- يجب أن تخرجي من هنا حالًا وإلّا ستتدمين..

هب جسدي واقفًا، فيما غزت الأوجاع رأسي. قاومت الألم المبرح، وأردفت:

- ماذا حدث؟

- هناك رجال في نهاية الممر ينتظرون خروجك ولا أحد يعلم مَنْ هُم؟ أو ماذا يريدون منك؟ لكن يبدو من نظراتهم، وعدم اكتراثهم لحالتك الصحية أنهم ينوون إيذاءك.. الدكتور معتز الآن يحاول المماطلة معهم بقدر المستطاع كي تتمكني من الهرب.. الْبسي هذا.

ساعدتني للمرة الثانية والأخيرة على ارتداء المعطف الأبيض، وعندما استدرتُ نحوها لمحت سريعًا الاسم المكتوب على الشارة خاصتها: سميرة البلطيمي. لَملَمت شعري بيديها القويتين تحت وشاح أبيض طويل، ثم سحبتني من ذراعي الأيمن وأنا شبه مخدرة في اتجاه باب الغرفة:

- خذي جهة اليسار، وحاولي السير بشكل طبيعي حتى نهاية الرواق.. ثم خذي جهة اليمين واركضِي حتى السلم ومنه إلى الخارج، وبعد ذلك أنتِ حرة، اذهبي كيفما تشائين، وربما تصادفك المساعدة بالخارج.. اذهبي الآن أرجوكِ.. الله معكِ.

مدت لي يدها بهاتف نقال شاشته مكسورة لم أراه من قبل في حياتي لكنها قالت أنه كان معي لحظة دخولي إلى المستشفى.. دسَّته في جيب معطفي ثم عانقتني بِحنوٍ بالغ، وما لبثت أن دفعتني إلى خارج الغرفة كحيوان أليف تريد التخلص منه.

في الرواق شعرت بقشعريرة تسري في جسدي وخوف عظيم يشل حركتي، لكني تحركت. بكل قوة لدي، كنت أحرك القدم تلو الأخرى وأسير جهة اليسار، حاولت تفادي نظرات المارة إلى أن وصلت إلى نهاية الرواق، وكما قالت الممرضة بالضبط، انحرفت جهة اليمين. تلفَّت حولي بنظرة خاطفة بعد أن هيأت ساقي للركض وإذْ بي أصطدم على حين غرّة برجُلٍ ذي قامة عالية، في عينيه شرارة تخلو من الرحمة فارتجفت منه خيفةً.

وليتني لم أفعل.

خوفي وتراجعي بضع خطوات دفعه للتحديق بي أكثر، ومن ثمّ التعرّف عليّ. وفجأة، دفعني إلى الخلف، وثبت ذراعي على الجدار، وبصوت جهوري تردد صداه في المكان سمعته يقول بلكنة إنجليزية غريبة "وجدتها.. هي معي.. تعالوا".

انزلق الوشاح الأبيض على الأرض من أثر الدفعة، فتبعثر شعري على كتفي ومعه تبعثرت أفكاري، ولم أجد مفرًّا من أنْ أركلَ منطقة ما بين الفخذين، وأسمعه يصرخ صرخة تقزز النفس وتثير الغثيان. شلت الضربة حركته قليلًا مما أتاح لي فرصة التملص من قبضته ودفعه بكل ما أوتيت من قوة، وقلبي يخفق خفقانًا شديدًا. الغريب أنه تراجع بخطوات سريعة وارتطم بالجدار المقابل، ومن ثَمَّ وقع على الأرض خاوي القُوى يصرخ ويَئنُّ!

كنت أعرف أنني قوية لكن أقوى من فحل كهذا كان حقًّا أمر عجيب! سريعًا مرَّ بذهني حادثة مشابهة حدثت لي في الماضي البعيد.. لكن عندما سمعت أصواتَ وقْعِ أقدامٍ تقترب منِّي، أوقفت عقلي عن العمل والذهول، وأطلقت ساقي للريح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أكن يومًا عداءة، لكن الخوف والتخبط منحوني القوة اللازمة لأعدو إلى خارج المستشفى، وأصل إلى ناصية الشارع في ثوانٍ معدودة. أبصرت خلفي سريعًا.. كان ثمّة رجال بالفعل يطاردونني

باستماتة، وعيونهم مصوَّبة نحوي وتنذر بالشؤم.

صرخت في نفسي "ماذا أفعل.. ماذا أفعل؟" لكنّ الألم النابض في رأسي منعني من التفكير جيدًا أو حتى التصرف بشكل يتلاءم مع مصيبتي.. فضلًا عن وجود الغيوم والسحب الداكنة الملبدة في السماء كدثار قديم أسود لونه، وبهت. كنت تائهة ومذعورة، ومن الزاوية التي أقف فيها رأيت الشارع أمامي مكشوفًا ولا مكان فيه للاختباء.

فماذا عليَّ أن أفعل؟

فجأة من اللا مكان انبثق أمامي سيارة "رينو" سوداء على بُعدِ سنتيمترات قليلة من قدمي. رأيت سائقها شابًّا حليقَ الرأس، ذا لحية خفيفة سوداء ينظر نحْوي ويصيح عاليًا "اركبي بسرعة".

ولكني لم أتحرك قيد أنملة. تسمّرت في مكاني أنقل بصري بينه وبين الرجال الآخرين وقد باتوا على بُعد أمتار قليلة منِّي. ولما رأيت السائق الشاب يمدُّ يده في جيب سترته الجلدية عجزت حرفيًّا عن التنفس، إذْ اعتقدت أنَّ معه مسدسًا سيُنهي به أمري بطلقة مدوية. ولكن عوضًا عن هذا أخرج صورة حديثة متوسطة الحجم وثبتها بأصابعه أمام عيني.. فيها رأيت أمي تقف بجوار هذا الشاب في أرض زراعية زاهية الخضرة، وقد بدت مبتهجة وسعيدة على غير عادتها كما لو أن بينهما علاقة قوية أو صداقة طويلة العهد.

قلب الصورة، فقرأت على ظهرها خط أمي وقد ميزته بسهولة "شكرًا لك يا حسام على أسعد يوم في حياتي".

ترددت وقد غابت أفكاري من شدة ضربات قلبي المفزوع، وقبل أن يصل الرجال بثانية واحدة، كنت أجلس بأمان على المقعد الخلفي للسيارة الـ"رينو" والتي انطلق بها صاحبها بعيدًا لا يلوي على شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استلزم مني الأمر دقائق لألتقطَ أنفاسي، وألملمَ ولو جزءًا من شجاعتي المبعثرة.. ثم نظرت إلى عين السائق في المرآة الأمامية، وسألته بثقة:

- من أنتَ؟

- أنا حسام الخليل.

لفظ اسمه كما لو كنت سأعرف شخصه من الاسم فقط، وافترضت أن للأمر علاقة بذاكرتي المفقودة فآثرت الصمت كي لا أثير شكوكه نحوي.. ثم عدلت عن رأيي، وسألته:

- إلى أين سنذهب؟

- إلى المطار لنأخذ الحقيبة قبل فوات الأوان..

- أي مطار؟ وأي حقيبة؟

نظر لي، في المرآة بعينيه الخضراوين المستديرتين، ثم أردف:

- الحقيبة التي تركتها في خزنة بالمطار.. أتذكرين؟

- أوه.. تلك الحقيبة. قلت بتردد. نعم، نعم أذكر، طبعًا.

ويبدو أنه قرأ صوتي الحائر، واكتشف كذبتي، فسألني:

- خزنة المطار لها رقم سِري.. وأنتِ تذكرين الرقم أليس كذلك؟ فبدونه لن نفتح الحقيبة أبدًا.

تلعثمت والدم يفور في رأسي:

- نعم، نعم، أعرف. لا.. في الحقيقة أنا.. أنا لا أذكر شيئًا، تعرضت لحادث ليلة أمس ونسيت بعض الأشياء..

أغمض عينيه في ضيق، وأردف:

- يبدو أن أسوأ مخاوفي تحققت.. علينا أن نتحدث قليلًا.

أدار مقود السيارة وغيَّر الاتجاه:

- إلى أين سنذهب الآن؟

- إلى مكان آمن يمكن فيه أن نتحدث بِحُريِّة أكبر..

صحت فيه:

- مكان آمن.. لا لا أنا لن أذهب معك إلى أي مكان، لا بُدّ أن أعود إلى أمي فهي حتمًا في خطر.

رمقني بدهشة في المرآة، وارتفع حاجباه الكثّان قبل أن يقول:

- هي.. هي في أمان الآن لا تقلقي عليها. المهم أن نأخذ الحقيبة من المطار بأسرع وقت ممكن، حياتك وحياتي باتت تعتمد عليها الآن.. من فضلك حاولي تذكُّر الرقم السري. الأمر مهم وخطير.

لم أحاول أن أتذكر شيئًا أو أتوقف عن الكلام. رحت أسأل عن وجهتنا وعن الصورة وعن علاقته بأمي.. ومع كل سؤال يأتي جوابه باقتضاب مزري لا يروي ظمأي الجامح "أعدك بالأمان والصدق" "سنتحدث حين نصل" "تربطنا علاقة قوية تصل إلى حد القرابة" عبارته الأخيرة أثارت حفيظتي وجنوني..

فمن أين لهذا الشاب الذي أراه لأول مرة؟ أن يكون على صلة بأمي التي أعرفها تمام المعرفة..

هل كنت حقًّا أعرفها تمام المعرفة؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[2]

حسام

تعرفت على نسرين فور خروجها من البوابة الأمامية للمستشفى.. لكنها -وكما توقعت- لم تتعرف علي.

كانت شاحبة اللون، وعيونها زائغة، وعلامات الهلع على ملامحها ظاهرة للعنان. نظرت يمينًا ثم يسارًا وسرعان ما اتخذت قرارها وسلكت جهة اليسار. خرج على إثرها ستة أو سبعة رجال مختلفين في الشكل واللون، وهرعوا خلفها كذئاب ضارية تطارد فريسة سائغة.

من وقع الصدمة، تجمدت في مكاني أتابع المشهد كالأبله، ولما انتبهت حواسي قفزت على المقعد الأمامي للسيارة أمام المقود، وانطلقت خلفهم.

قبل ثلاث ساعات من كل هذا.. كنت أبحث داخل المستشفى عنها كالمجنون، ولم أتجرأ على سؤال أحد العاملين.. إذ أنني لا أعرف غير اسمها الأول فقط "نسرين".. ولم أرَها في حياتي سوى مرة واحدة في صورة اُلتقطت لها قبل سبعة سنوات، وخشيت من أن تكون تغيّرت إلى حد يصعب التعرُّف عليها.

لحسن الحظ، بعيدًا، لمحت سميرة.. جارتي الودودة، والأم المزعجة، والممرضة الجادة ذات الرداء الوردي أمام الجميع.. خليط غريب.. لكن منطقي وواقعي في عالمنا.

هرعت نحوها دون تفكير:

- مدام سميرة.. مدام سميرة.

التفتت لي باستعلاء.. ولما عرفتني، تطلعت في بذهول يشوبه القلق.

قلتُ لها لاهثًا:

- أحتاج إلى مساعدتك.

- ما بكَ ياحسام.. هل أنتَ بخير؟

سحبتها إلى ركنٍ هادئ، وطلبتُ منها بحرج أن تبحث بين المرضى عن فتاة في الثالثة والعشرين من العمر تدعَى نسرين وصلت إلى المستشفى في عربة الإسعاف قرب الفجر.

سألتني عن صلتي بها، فقلت كذبًا أنَّ بيننا علاقة عاطفية مُعقدة، ولا أريد لأحد من أفراد العائلة أن يراني.

أومأتْ برأسها متفهمة، وإن بدا عليها بعض الشكوك. وبعد نصف ساعة بطيئة مرت كلحظات سكرات الموت عادت واجمة متوترة، ملامحها لا تبشر بالخير.

سألتها متلهفًا:

- ماذا حدث.. هل هي بخير؟

قالت بحزن أنّ نسرين وصلت بالفعل قبل قليل، ودخلت إلى غرفة الطوارئ بجوار بعض المرضى، ثُم تَمَّ نقلها إلى غرفة خاصة بأمرٍ من مدير المستشفى شخصيًّا "الدكتور معتز" لكنها لا تزال غائبة عن الوعي، وتحت الملاحظة. صمتت ثم أضافت:

- هناك مَن ينتظرها بالخارج.. رجال.

- رجال!! تساءلت بفزع.

هزت رأسها بأسفٍ، وقالت:

- عرفت أنهم وصلوا بعد دخول نسرين بلحظات، وحاولوا أنْ يأخذوها عنوة بأي طريقة ممكنة، لكن الأمن منعهم..

ثم مالت نحْوي وخفضت صوتها كمن يفضي بأسرار دولة، واستأنفت:

- الدكتور معتز وقع على خروجها بمجرد أن تستعيد وعيها.. واضح أنهم هددوه.. هي أهلها من الصعيد!؟

أجبتُ على سؤالها بسؤال آخر:

- سميرة.. يجب أن أرى الدكتور معتز حالًا؟

لاشك أنها تعجبت من طلبي الصادر بنبرة آمرة لكنها رافقتني إلى مكتب الدكتور معتز من دون كلام.

من يوم استأجرت غرفة صغيرة فوق سطح منزلها، وهي تعاملني بكل طيبة واحترام، خصوصًا بعد أن تركتُ لها السطح -على عكس المستأجر السابق- لأولادها الثلاثة، وفراخها، وطيورها. كنت أحب الطيور لذلك لم أجد مشكلة، لكن الفراخ والشياطين الثلاثة كنت أتحملهم على مضض، وأقول لنفسي فترة مؤقتة وسأرحل قريبًا عنهم وعن القاهرة كلها. وسُررت كثيرًا لما وجدت أن لهذا التحامل والتغافل كان له منفعة في نهاية المطاف.

في مكتب الدكتور معتز. جلس الدكتور خلف مكتبه منكبًا على قراءة أوراق طبية وملفات لا حصر لها في غرفة مساحتها محدودة لكنها نظيفة ومرتبة.. وقفت أنا وسميرة أمامه متجاورين بعد أن سمح لنا بالدخول. قالت سميرة بأدب:

- دكتور معتز.. حسام أخي يريد التحدث إليك لأمر ضروري.

رفع عينيه في انزعاج، وتطلع إليَّ بابتسامة صفراء ثم أشار إليَّ بالجلوس. كان رجلًا في خريف العمر، نبيل الملامح، رأسه الأشيب يكلله الوقار، وعيناه تشعان ذكاء وفطنة تليق برجل في مركزه. سألته وأنا أقف في مكاني عن حال نسرين.

فسأل بتلقائية:

- مَن نسرين؟

ردَّت عليه سميرة على الفور:

- الفتاة التي جاءت في الإسعاف قبل قليل.. الغائبة عن الوعي يا دكتور.

خلع نظارته واعتدل، وقد بدا عليه الشرود:

- أوه.. اسمها نسرين إذًا.

وغرق في الصمت بعدها. وقد تبدلت ملامحه وامتقعت. لحظات مرت، ثم قال موجهًا كلامه لسميرة:

- سميرة من فضلك.. احضري لي ما طلبته من مدام خديجة في الحسابات.

فهمت سميرة أنَّ الاجتماع بات مغلقًا بينه وبيني فخرجت في هدوء. خبرتها الطويلة في العمل بالمستشفى جعلتها تُدرك أن هناك أشياء لا يجوز التدخل فيها لو أرادت أن تعود إلى بيتها في نهاية كل يوم وهي أكثر هدوءًا وأقل نكدًا.

نهض الدكتور معتز واقفًا، واقترب مني:

- قُل لي ما الذي تعرفه عن نسرين؟

أردت المراوغة فقلت له:

- أعرف أن كل من ينتظرها الآن خارج غرفتها لا صلة له بها.

- أعلم هذا. قال الدكتور ببساطة أدهشتني، فاستطردت:

- وتعلم أنهم ينوون إيذاءها.

- أعلم.

- ومع هذا وقعت على خروجها معهم.

فكّ زر قميصه العلوي، وأردف:

- الأمر ليس من شأني.. هي من تورطت معهم، وهي من عليها أن تجد حلًّا لمشاكلها.

لم يكن هذا ما توقعته وأنا ألجأ إليه.. لم أكن أتوقع منه شيئًا بالتحديد لكن السلبية واللامبالاة لم يكونا في الحسبان. صرخت:

- تورطت معهم! أهكذا ترى الأمر؟ تسلمها إلى الموت بيدك وتقول لا ذنب لي.

- وبرأيك كيف سأراه؟ فتاة تدخل المستشفى إثر حادث مريب، وخلفها يدخل رجال مسلحون جاهزون لقتل كل من يعترض طريقهم.. فماذا سأفعل؟

- مهمتك هي إنقاذ حياة المرضى هنا.

ردّ وهو يتحاشى النظر في عيني، وشفتاه ترتجف:

- ولهذا السبب عليها أن تخرج من هُنا يا أستاذ.

نظرت له بغيظ، وقلت:

- أنت شخص جبان.. ولا تستحق الجلوس على هذا المكتب.

انتظرت أن يقول شيئًا، أن يعدل من رأيه.. أن يطلب الأمن.. لكنه لم يفعل، وعاد ليجلس على كرسيه فى هدوء مصطنع. ولم أجد ما أفعله سوى الخروج صافعًا الباب خلفي في غضب.. لكن بعد بضعة خطوات سمعت الباب ينفتح من جديد. استدرت، ورأيت الدكتور يخرج بنصفه العلوي فقط ويقول بصوت هامس بالكاد كان مسموع:

- اسمع يا.. انتظرها تحت في الاستقبال، لعلي أجد لها مخرجًا.

ثم توارى في غرفته، وأغلق الباب سريعًا.

الخوف ذُلٌّ لصاحبه كالموت البطيء.. فمن ترك الخوف يأسره، ترك الظلم يحكمه. على كل حال لم أثق بكلام الدكتور كثيرًا، ورأيت أن الخروج من المستشفى، والانتظار بجانب السيارة الـ"الرينو" أمام البوابة الأمامية هو أفضل شيء يمكن فعله. من ناحية سأتمكن من الهرب بسرعة إن استشعرت الخطر، أو ألْحقُ بنسرين إن خرجت وتعرفت عليها.

ولحسن الحظ أنّ الأمر سار أفضل ممّا توقعت...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"هناك شيء واحد فحسب أعرفه،

وهو أنني لا أعرف شيئًا".

سقراط

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[3]
نسرين

القاهرة – 2025

الساعة الحادية وخمس وأربعون دقيقة

عندما ركن المدعو "حسام" السيارة بحذاء الرصيف وترجّلنا منها.. كانت الغيوم قد انقشعت، والشمس تطلع علينا في استحياء، عروسة مدللة طال انتظارها.

"علينا أن نتحرك دائمًا" قال حسام وهو يشير إلى محطة مترو بالقرب منَّا.

سُررت بالفكرة.. ورأيتها أكثر أمانًا وسلامًا من سيارته. رافقته في صمت، ثم نزلنا من سلم هابطٍ، وركبنا عربة المترو التي راحت تهتز بنا في دهاليز مظلمة، وسط أفواج من البشر المَختلفين بأعمارهم، وألوانهم وحتى رغباتهم، وقد راودني سؤال إن كان كلٌ منهم لا يعرف ما الذي حدث له بالأمس تمامًا مثلي فتكون حالتي حالة عامة لا ضرر منها.

فور خروجنا من هذا العالم الزاخر، والذي لم تسنح لي الفرصة بتجربته سوى مرة واحدة منذ زمن بعيد وقد أقسمت أمي وقتها بعدم تكرارها لأنها مضيعة للوقت، وجدت نفسي في منطقة غريبة لم أعهدها من قبل.. فقد كنا في إحدى المناطق العشوائية التي اعتدت رؤيتها على التلفاز خصوصًا في أفلام العنف وأخبار الحوادث.

توجست كثيرًا من المكان، وعاد الألم ينخر رأسي واهتاجت بواطني، فكل ما سمعته عن تلك المناطق لا يبشر بالخير خصوصًا في التعامل مع الغرباء، فهل أتيت إلى حتفي طواعية؟!

عند هذا الحد تسمّرت في مكاني كالأطفال، وقلت لحسام بحِدِّة:

- لن أتحرك خطوة أخرى دون أن أعرف إلى أين سنذهب.

تأفف بضيق، وقال بصوت هادئ مصطنع:

- وعدتك بالأمان، وهذا مكان يعيش فيه صديق وأخ عزيز قد يساعدنا حتى نخرج من هذا المأزق بسلام، أرجوكِ تحمّلي على نفسك قليلًا واتبعيني. سأشرح لك كل شيء في الوقت المناسب.. فأنا ربما الشخص الوحيد الذي لن يرغب بإيذائك أبدًا.

"الشخص الوحيد" رنّت كلماته في أذني كطنين ذبابة مزعجة فاقْشعر بدني. وفي نهاية المطاف، ورغم المخاوف لم أجد مفرًّا من أن أتبعه، وأتساءل في كل خطوة "أين أنتِ يا أمي؟".

كان الطريق أمامنا طويلًا ومتعرِّجًا، تتخلله الحفر والمطبات. توزعت على الجانبين أبنية قديمة حقيرة تكشف عن خصوصية قاطنيها، وأعمدة نور صدئة، وخطوط كهرباء قديمة، ومن وقت لآخر أحدهم يرمقنا بتوجس ثم يشيح بنظره عنّا.

فرق شاسع بين تلك الحياة المثيرة للشفقة، وبين حياتي المرفهة في الإسكندرية، أو حتى بينها وبين بيئتي الهادئة النظيفة في القليوبية.

تمنيت في نفسي لو كان كل هذا كابوس سأستيقظ منه بعد قليل.

عبثًا تمنيت...

على بُعد خطوات أمام البيت الذي سندخل فيه بناءً على توجيهات حسام، رأيت رجلًا في منتصف العشرين يرتدي قميصًا مزركشًا، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. وعرفت أن اسمه "عزام". وكان يقف مع مجموعة من رجال تشي هيئتهم بخطورة أفعالهم ونواياهم.

قال عزام وعيناه لا تفارق وجهي:

- يا أهلًا وسهلًا بالأحباب.

قادنا عزام إلى شقة بالدور الثاني، لا تحتوي على كثير مفروشات، مجرد أريكة، وطاولة، وبعض المقاعد، ومطبخ.. على الطاولة رأيت وجبة دسمة -كباب وكفتة- وكنت جائعة للغاية وعصافير بطني بتزقزق.. ولما عرض عزام علينا بالطعام لم أمتنع وإن اتخذتُ الحذر وتركتهم يأكلون أولًا.

أثناء المضغ كان لدي متسع من الوقت لأنظر إليهما مطولًا، وأتبين ملامحهما بدقة. كان حسام شابًّا طويلًا القامة، قوي البنية، له عضلات قوية، وعنق وكتفان مائلة، ووجنتان بارزتان وشفتان غليظتان، وفي نظراته حدّة وذكاء. أما عزام وعلى النقيض تمامًا كان قصير القامة، ذا بشرة سمراء، وشعر خشن، وأذنين صغيرتين، وعينين كسولتين ماكرتين..

- ماذا تذكرين من ليلة أمس؟

باغتني حسام بسؤاله.

توقفت لقمتي في منتصف الطريق، وواجهت مشكلة في بلعها قبل أن أردف بصوت خافت متردد:

- لا شيء.. لا أذكر منه أي شيء.

هزّ حسام رأسه مظهرًا التأثر، والْتفت ينظر بأسى إلى عزام. فتهيأت لأسأله بخصوص ليلة أمس لولا أنه سبقني بسؤاله:

- هل معك أي غرض في جيوبك ربما يكون مفيد لنا؟

هززت رأسي بالإيجاب، ورحت أفتش في جيب المعطف والبنطال بتروٍ. وجدت محفظتي بها أوراق مالية لابأس بها، وكارت ائتمان، وبعض الصور، ومعهم الهاتف الذي أعطتني إياه الممرضة في المستشفى، وكان في حالة مزرية لا يصلح للاستخدام، قلت له بصراحة إنه ليس هاتفي ولا أعرف صاحبه. تجاهل حسام الأوراق المالية وكارت الائتمان وأمسك بالهاتف في اهتمام بالغ. تفحصه قليلًا ثم ناوله لعزام الذي نهض به، وخرج.

قال حسام:

- سنحتاج إلى صديق يفهم بتلك الحالات. مشيرًا إلى حالة الهاتف، وموضحًا سبب خروج عزام المفاجئ في عبارة واحدة.

عاد الصمت المريب يغشى الغرفة من جديد، فكسرته بقولي:

- أحتاج إلى هاتف ضروري.. أريد أن أتحدث مع أمي.

- لا يمكنك هذا.. فهاتفها مراقب.

- مراقب.

هتفت:

- إذًا هي ليست في أمان كما قلت.

سارع إلى قول:

- بلى هي كذلك.. لكن اتصالك سيعرضها ويعرضنا للمشاكل.

تعلقت عيني بعينه لثوانٍ، وحاولت أن أستخلص طبيعته ونواياه الحقيقية. ولما فشلت في التجربة انفجرت فيه بحدة:

- كيف لي أن أثق بك في مكان كهذا أو بعدما رأيت أصدقاءك؟ من أنتم؟ وأين أنا؟ وماذا يحدث هنا؟

ردّ عليّ بحدة مماثلة:

- أنتِ من اتصل بي وورطني في مشكلتك من الأساس.. وإن كان ثمة أسئلة فأنتِ مَن عليها أن تجيب على أسئلتي.

قلت ذاهلة:

- أنا!

- نعم أنتِ.. اتصلت بي في الفجر وطلبت مني استلام حقيبة من خزنة بالمطار رقمها تسعة عشر، وبعدها انقطع الاتصال فجأة.. وهذا أقسم بالله هو كل ما أعرفه.. ولأنني مدين لأمك بالكثير والكثير، فأنا ملتزم بك، وحمايتك باتت أولويتي..

صعقتني كلماته ولم أقوَ على الردّ بالنفي أو التأكيد.. ويبدو أنه قرأ تلاطم أفكاري وتدهورها فرأف بحالي، وبنبرة هادئة خافتة استطرد:

- فلنهدأ قليلًا.. لو فقط كنتِ تذكرين أحداث البارحة لهدأت أفكارك وعرفنا ماذا سنفعل. على أيه حال لا تثق بي ولا بأي أحدٍ إن أردتِ.. لكن على الأقل تعاونِي معي قليلًا لنخرج من الأمر بسلام.

قلت له بوهن:

- أنا فقط لم أعد أفهم شيئًا، وهذا يخنقني.

- أيسعدك أن أقول أنني أيضًا مثلك لم أعد أفهم أي شيء؟

هززت رأسي بالنفي، فابتسم، وقال:

- أعلم أن الأمور مريبة ومخيفة بالنسبة لكِ، لكن علينا أن نتعاون قليلًا حتى نفهم معًا ما يحدث، هيا لنذهب إلى المطار ونأخذ الحقيبة.. ولنرى معًا ما سيحدث بعدها؟

تساءلت:

- ومن أين لنا بالرقم السري؟

فرد بثقة:

- أنتِ من وضعه بالأساس وعليكِ تخمينه.

- لا أراها فكرة جيدة.

سار في طريقه إلى باب الشقة والْتفت لي سائلًا:

- وهل لديك فكرة أفضل؟

مشوشة، وبلا إرادة، نهضت لأتبعه مرغمة من جديد، استرقت نظرة إلى ساعة الحائط وكانت تشير إلى الثالثة وربع بعد الظهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام خزنة بالمطار، وقفت أتصبب عرقًا بعد محاولتين فاشلتين لا تبشران بالخير.. وفكرت "ستضيع الحقيبة منَّا لا محال".

كان المطار يعجُّ بالمسافرين ولم نعرف من أين علينا أن نبدأ بالبحث؟ وبعد سؤال أحد العمال توجهنا نحو إدارة المتروكات بالمبنى "1" وهناك وجدت نفسي أمام خزنة فولاذية برقم سري مكون من أربعة أرقام.. خمنت في المرة الأولى أن يكون "2002" وهو سنة ميلادي لكن الخزنة لم تفتح، حاولت برقم "1111" لكن الزِّرّ الأحمر عاود الظهور معلنًا عن خيبتي وقلة حيلتي، جاءني صوت حسام من الخلف مشجعا، هادئًا "فكّري يمكنك فعلها".

المحاولة الأخيرة. همست فى سري. فجأة، لمع في ذهني رقم ربما يكون هو المنشود. فلو كنت أقف في نفس المكان ليلة أمس، وكنت أرتجف من الخوف وأشعر بالخطر العظيم، فحتمًا كُنت سأُدوِّن الرقم الذي يذكّرني بنفس هذا الشعور.

سحبت نفس عميق ومددت أصابعي المرتعشة، ودوّنت الرقم.. "2008".

أضاء الزر تلك المرة باللون الأخضر مصاحبًا بصوت طرقعة خفيف، وانفتحت الخزنة على حقيبة سوداء مربعة تحتوي على صور إشعاعية وأوراق مُعقدة الفهم باللغة الإنجليزية، بداخل ملف أصفر كبير. حاولت أنا وحسام أن نفكّ طلاسمها من دون فائدة، وتمنيت وقتها لو التحقت بكلية الطب كما أرادت أمي.

في النهاية اقترح حسام أن نخرج من المطار، ومحاولة ترجمة فحواها لاحقًا في مكان آخر.

في الوقت الذي خرجنا فيه من المطار كان النهار قد انقلب مكفهرًا، وعلى الرغم من أنَّ الوقت كان باكورة العصر فإن الضباب جعله معتمًا كالغسق. سارعنا لركوب سيارة عزام الفضية، وانطلق حسام عائدًا مرة أخرى إلى بيت عزام الآمن على حد قوله. ولم نتبادل كلمة واحدة.. فكلٌّ منّا في ماضيه الخاص يُبحر.. إذْ كنت أتابع الطريق من النافذة بعيني الشاردة، وعقلي يفكر في رقم "2008".

وقد اجتاحني موجة خوف وقلق عميق، ورحت أخمن السبب الذي جعلني أُمزج بين ليلة أمس وبين ما حدث لي في عام "2008".

قد نظن أننا ننسى أسوء ذكرياتنا لكنها ستبقى مجرد ظنون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[4]
بداية كل شيء

2008

قد يدّعي الطفل النسيان لكنه أبدًا لا ينسى، خصوصًا لحظات البكاء والضعف وخيبات الأمل.

كانت الذاكرة دومًا تعود بي إلى ذلك اليوم المشؤوم، حيث اصطحبتني أمي إلى سيارة سوداء من الخارج والداخل كالليل البهيم. كانت أمي ترتجف والعرق يتصبب منها بغزارة رغم برودة الجو، وبين الفيْنة والأخرى تطبع قبلةً على جبيني وقمة رأسي وتلف ذراعيها حولي بقوة. أخذتنا السيارة إلى مبنى مهجور في مكان بعيد عن المدينة يحرسه رجال ضخام الجثة. وفي منتصف ممر طويل، ضعيف الإنارة استقبلنا رجل قبيح الأنف، أشقر الشعر له ابتسامة لم يرتَحْ لها قلبي.

كان اللقاء غريبًا، إذْ لم يسمحوا لأمي بمرافقتي إلى نهاية الممر. فلم أجد مناصًا من إطلاق الصياح والعويل حتى سمح لها الأشقر بهذا على مضض. ودخلنا معًا إلى غرفة فسيحة مكتظة بعدد من الرجال والنساء مختلفين الملامح والأعمار، وعلى درجة عالية من النشاط، والاستعداد لشيء مجهول.. أمامهم دائرة كبيرة من الشاشات البيضاء والأجهزة المعقدة التركيب.

"كل هذا من أجل حقنة!" قلت لنفسي، وتمسكت بأهداب أمي طلبًا للأمان.

دقائق، وكنت أجلس على كرسي قاسٍ غير مريح بعد أن خلعت بنطالي كما طلبت أمي وحاولت بجهد أن أسترخي. ابتعدت هي رويدًا رويدًا، وأفسحت المجال لامرأتين حادتَيْ الملامح باردتَيْ النظرات. وقد تعاونتا معًا على ربط أحزمة عريضة حول معصمي وقدمي وخصري وكتفي.. وفي لحظة سحبتا معًا كل الأحزمة فاشتدت، وثبتتني بقوة.. ثم ابتعدتا تباعًا عن ناظري.

رأيت أمي -والتي كانت لحظتها تقف خلف ظهر قبيح الأنف- وهي تتحاشى النظر في عيني، والدموع تنساب على خديها في صمت، فازددت خوفًا وبكاءً وتوسُّلًا.

عادت بعد هنيهة إحدى المرأتين حاملة في يدها حقنة غرزتها في ذراعي اليسرى، وضخت محتوياتها في جسدي. وفي ذراعي اليمنى كانت المرأة الثانية تغرز حقنة مماثلة في نفس الوقت تقريبًا.. ثم ابتعدت وعادت حاملة حقنة أكبر بكثير، وأعطتها للأولى التي لم تتمهل ثانية واحدة، وغرزتها بكل قوة في فخذي الأيمن، وتركت سائلها يجتاح جسدي بأريحية.

صرخت.. بأعلى صوتي.. صرخت، ورحت أتلوى كمن تلقى طعنة الموت. كان الألم ينبض في فخذي ويَسرِي في كل جسدي كثعبان، وشعرت بالألم يزداد أيضًا في ذراعي. وأنا ورغم كل ما أتعرض له من هول كنت مكبلة عاجزة تمامًا عن المقاومة.

قلت مستغيثة:

- أمي.. أمي.

كانت أمي تقف في الجانب البعيد من الغرفة وتكتفي بمراقبتي. لم تحاول إيقافهم أو إنقاذي منهم أو الإتيان بأي فعل يخفف عنِّي الألم.. فقط كانت تبكي، وتضع كفها على فمها، وتهتز.

بطرف عيني لمحت المرأة الثانية تعد حقنة أخرى وتُناولها للأولى. وبنفس القوة، غرزتها في فخذي اليُسرى.. عندئذ رأيت أمي تركض نحو الاشقر وتتفوه ببضع كلمات لم تلتقط منها أذني سوى كلمة مخدر، ولكن الأشقر أزاحها لرجاله، وأخذوها إلى الخارج.

مرت الدقائق الطويلة القادمة علي، وكأنها ساعات من الصراخ، والعويل حتى تهشم صوتي تمامًا. ولم يخفت الألم ولو لبرهة بل كان يزداد وينخر عظامي كقنابل صغيرة لا تكف عن الانفجار.

صدقًا لا أدري كم عدد الحقن التي تم ضخها في جسدي بعد ذلك، فقد توقفت عن العد بعد رقم خمسة.

ربما هم ثمان أو تسع.. صدقًا لا أدري.

ومرت نصف ساعة أو ساعة على نفس المنوال، وعلى الرغم من شدة الإنهاك والألم ظلَّ عقلي حاضرًا وقلبي ينبض بعنف.

وأخيرًا، وبعد طول انتظار وعذاب.. بدأ الألم يسكن رويدًا رويدًا، ومعه بدأتُ ألتقط أنفاسي. وعندما رأيت المرأة تقترب مني ومعها حقنة جديدة، عدت للصريخ بصوت مبحوح.

لكن صراخي تلك المرّة لم يدم طويلًا، إذ كانت الحقنة عبارة عن مخدر سريع المفعول، وسرعان ما غبت في سبات عميق.

عندما استيقظت، كانت أمي تجلس بجواري على الفراش.. وتتطلع نحوي بابتسامة عريضة حانية، وقد بدت أجمل وأصغر سنًّا بكثير! حملتني بين ذراعيها كطفلة رضيعة، وطافت بي في بيتنا الجديد: طابق علوي من "فيلا" مكونة من طابقين منفصلين، لها حديقة واسعة مزدهرة تجذب أنظار المارة.

قلت لها:

- أين نحن؟

فردت:

- في بيتنا الجديد بمحافظة جميلة اسمها القليوبية.

فقلت لها واجمة:

- وماذا سنفعل في القليوبية؟

- سنعيش فيها، ونكون معًا أجمل الذكريات.

ومنذ تلك اللحظة ونحن نعيش حياة هادئة، مرفهة، وظاهريًّا لا يوجد بها أي شائبة.. لكن العلاقة بيني وبينها تزعزعت كثيرًا، ولم تعُدْ أبدًا إلى سابق عهدها.

فهي باتت تتحول في نظري شيئًا فشيئًا لامرأة متسلطة مريبة ترفض الاشتراك في أي نشاط ترفيهي أو رياضي خصوصًا ألعاب القُوَى والسباحة دون مبرر. وأنا بدوري كنت أرفض أو بمعنى أوضح أتجنب بقدر المستطاع السفر معها أو التسكع في أي مكان بعيد عن البيت بشكل قاطع وفوري، وهي حتما كانت تعرف السبب!!

فهي بالنسبة لي كانت المرأة التي أخذتني ذات يوم وأنا لم أتجاوز الست سنوات إلى حيث وجدت الألم والخوف..

فكيف لي أن أنسى هذا؟ بل كيف لي أن أسامح؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[5]

حسام

هدوء ما قبل العاصفة. هكذا كانت حياتي تشير قبل بضعة أيام. أبدأ الصباح بكوب الشاي وأرغفة الفول والطعمية مع المعلم مُرضي وهو رجل خمسيني ذو سمرة جنوبية، ثم أشرع في العمل تحت مراقبته، وملامحه الجامدة التي لا تفصح عن مكنونيته.

لم أخبره بهذا الشيء، ولكن قناعه الخارجي يذكرني بقناع مؤنس المتبلد. أشتاق له كثيرًا، وإلى مناكفتنا التي لا تنتهي، لم أكن وفيًا معه بالقدر الكافي، وتركته في منتصف الطريق سعيًا وراء حياتي الخاصة، ولم أقف بجانبه بعد وفاة جدته إذ اعتقدت أن المرء عليه أن يستجمع قُواه بنفسه ويلعق جراحه ويتقبل سريان الحياة رغم الخسائر.

أصبح مؤنس طالب مجتهد في كلية الطب يطمح أن يكون دكتور جامعي. يزورني بين حينٍ وآخر، ويقضي معي أيامًا طيبة يشاركنا فيها عزام كالأيام الخوالي.

أنفقنا، أنا والمعلم مُرضي، عصر ذلك اليوم نتجاذب أطراف الحديث عن الأحداث السياسية والاجتماعية ويختم حديثه كالعادة بلعن النساء وكل مَن يرغب في النساء.

قلت له مازحًا:

- وما ذنب هؤلاء إن كنت تزوجت منهن ثلاثة؟

- كان أكبر خطأ في حياتي.

ثم أضاف مقهقهًا:

- زوجة واحدة تكفي، ولو كانت نصف رجل ولها شارب ولحية.

شاركته الضحك، وأردفت:

- تقول هذا لأن العصفورة الجديدة لم تقع في القفص بعد.

يبتسم ابتسامة عريضة ولا يرد، إنه يعرف أنني الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يتحدث معه بتلك الطريقة. في بادئ الأمر كان المعلم يشعر تجاهي بالامتعاض والانزعاج رغم ما أبذله من جهد في العمل، ثم جاء الاحترام والمحبة بعد ذلك وعلى نحو مفاجئ.

علمت من عزام في بداية عملي مع المعلم مُرضي أن "إسلام" الابن الأكبر للمعلم من زوجته الأولى يتعاطى المخدرات فلم أهتم بالأمر، وبعد فترة علمت أنه ارتكب فاحشة الزنا مع اِبنَة تاجر مخدرات لا يرحم، وأنها ستُخبر أباها إن لم يتقدم للزواج منها ويمحي العار. خشيتُ عليه من الموت وهو بعد في ريعان شبابه، فأخبرته، وأنذرته.. لكن إسلام هاج وماج، وقال إنه لن يتزوج من عاهرة وطأها عشرات الرجال قبله وبعده، ثم خرّ باكيًا وطلب مني النصيحة.

"الجزاء من جنس العمل". فكرت في سري، لكني أشفقت عليه وعلى صدمة أبيه لو علم بالمستور، ونصحته بمراقبة الفتاة ليلًا ونهارًا حتى يأتي بها متلبسة أمام أبيها في وضع فاحش مع أحد عشاقها. وقد حدث ما توقعت. وتزوجت الفتاة من رجل يليق بها وتليق به.

جاء إسلام إلى غرفتي بعد منتصف الليل بنية الاحتفال والسهر، فقلت له حازمًا أن الله يوم الحساب لا يفرق بين رجل وامرأة، وأن الزاني لا ينكح إلا زانية مثله، وإياك أن تنسى أنك كما تدين تُدان. انتصب إسلام غاضبًا من كلماتي ورحل، لكنه قبل أن يفعل قلت له بصوت يصل إلى درجة الحبور:

- الله لا ينسى إثمًا ارتكبه عبده حتى يستغفر ويتوب عنه، فهو الغفور الرحيم.

بعد ذلك بأيام فوجئت بإسلام وقد تغيرت سحنته الغاضبة الحزينة على الدوام إلى سحنة رجل هادئ مسالم لا يعرف إلا الابتسام. وكان قد عرف طريق المسجد وبدأ يواظب على الصلاة وتلاوة القرآن لعل الله يغفر ويسامح.

الخوف من عقاب الخالق في الدنيا أحيانًا يكون دافعًا لإصلاح بواطن الخلق، وأحيانًا يكون سمو الجزاء في الآخرة هو الدافع الأكبر، لكن الحالتين أحيانًا يتم استغلالهم مِن قبل مَن لا دين لهم لتحقيق المصالح الشخصية والسيطرة على الرقاب.

مالم أتوقعه قطّ هو أن يُخبر إسلام أبويه بما فعلته، ومنذ ذلك الوقت والمعلم مُرضي وزوجته يكنان لي كل احترام وحب ومودة.

في الورشة كنت منهمكًا مع المعلم مُرضي في إصلاح رافعة السيارات، وأحسست بحركة رشيقة تدخل المكان، وانسابت إلي أنفي رائحة عطرها الفواح قبل سماع صوتها الفحيح، لكنني لم أجرؤ على الالتفاف لرؤيتها.

- صباح الخير يا بابا.

- صباح الخير يا نورا.

اسمها الثلاثي نورهان مُرضي الغطاط، ذات السبعة عشر عامًا. مراهقة صغيرة وجدت في شخصي ضالتها الوسيم والحب الميؤوس منه الذي تتحدث عنه مع صديقاتها في المدرسة فتبكي معهن وتتأوه من عذاب الحب.

اقتربت منّا ووقفت إلى جانبي، متوهجة مثل بدر ساطع. من طرف عيني، لمحت قامتها الفارعة وأنوثتها الطاغية المثيرة، فأشحت بوجهي عنها. أستغفر الله العظيم.

- صباح الخير يا حسام.

- صباح الخير يا آنسة نورهان.

تنفست في ضيق، وقالت بعصبية:

- بابا.. ماما بترن على تليفونك من فترة طويلة وأنا نسيت تليفوني فى الشقة.. اطلع لها ضروري.

زفر المعلم وخرج من الورشة وهو يلعن النساء وكل من يرغب في النساء.

ضحكت عليه، وعدت لفحص رافعة السيارات. وعندما اقتربت مني نورا مع الحفاظ على مسافة مناسبة خشية من عيون المارة وألسنتهم، قالت ببطء بنبرة معاتبة:

- آنسة.. ونورهان. أنت مصمم تجرحني ياحسام؟

رفعت حاجبي بتعجب، وأردفت:

- آسف. لم أقصد هذا أبدًا، إنه أسلوب احترام.

- احترام!! لا يوجد احترام بين العاشقين.. أنتَ عارف إني بحبك.

ولُّيتها ظهري مُدعيًا الانشغال:

- آنسة نورهان أرجوكِ.. أنتِ اِبنَة المعلم مُرضي وأنا مجرد عامل لديه.. فلتبقى الأمور على وضعها.

- ألا أُعجبك ولو حتى قليلًا.. يقولون إن الإعجاب هو أول طريق للحب؟

زفرت عاليًا، وكل ما يدور بخلدي هو كيف أتخلص منها بأفضل الكلمات الممكنة:

- آنسة نورهان.. أرجوك عودي إلى بيتك وركزي في دراستك.. الحب لا ينفع.

فردت بإصرار:

- سأفعل.. وسأنجح بتفوق وأدخل كلية زراعة مثلك.. فقط لو قلت لي أنك ستحبني كما أحبك.

تركت ما في يدي والتفت لها، وقد حسمت أمري:

- آسف يا آنسة نورهان.. حضرتك بالنسبة لي مجرد اِبنَة المعلم ولِي نعمتي، ولن يجمع بيني وبينك أي صلة غير هذا.

حملق أحدنا في الآخر لثوانٍ، ثم انصرفت والدموع تترقرق في مآقيها. كان من الممكن لنورهان أن تغير حياتي إلى الأحسن. خصوصًا أن المعلم مُرضي لَمَّحَ أكثر من مرة قائلًا:

- من يتزوج بنت من بناتي ويكون على خلق مثل حسام سأبتاع له شقة وسيارة وورشة تحت البيت إن شاء.. أنا بشتري راجل.

لكني تجاهلت التلميح، ورفضت ترك فرشاة مستقبلي في يد شخص يلوح بها كيفما يشاء.. كما أنني شعرت لسبب مجهول أنني لن أتمكن من إسعادها أبدًا، وأنه عليّ أن أحميها من ضعفها وهشاشة قلبها، لعلها في المرة القادمة يعلمها الجرح كيف تختار من تحب.

في المساء عُدت إلى الغرفة المؤجرة هالكًا من شدة التعب، وقد ركنت سيارة ابن المعلم مُرضي الـ"رينو" السوداء تحت البناية بحذاء الرصيف لأفحصها غدًا في الطرقات. كان السطح في حالة من الفوضى والإهمال ما يبعث على التجهم والنفور، وعزمت في قرارة نفسي على مُعاتبة مدام سميرة وصغارها في الصباح.

كان الجو، داخل الغرفة، قارس البرودة بشكل لا يحتمل، فتدبرت أمري سريعًا وانسللت تحت البطانية الثقيلة، وغرقت في نوم هادئ مليء بالأحلام الوردية والمزعجة.

كلها أحلام ولا ضرر منها.

الخوف ليس من حلم لا تعرف تفسيره، وإنما الخوف من واقع لا تعرف مصيرك فيه.

قرب الفجر بقليل، راح الهاتف يرن من رقم غريب. ولما كنت ناعسًا، ولا أرغب في الحديث مع زبون بليد يفتقر للذوقيات، فقد قررت عدم الرد. توقف الرنين قليلًا، وبعد لحظات بدأ الرنين مجددًا بإصرار أكبر.

في تلك اللحظة، شعرت بدافع قوِي في أعماقي يأمرني بالرد، فرددت، وسمعت صوتًا لفتاة مرتعبة تحاول أن تتمالك صوتها:

- حسام.. حسام الخليل.

قلت وأنا أجاهد النعاس:

- نعم.. من أنتِ؟

- أنا نسرين.. نسرين الزهار.. ماما قالت لي أنك شخص جيد وموثوق فيه.

نهضت من رقدتي بسرعة واعتدلت هاتفًا:

- نسرين! أين أنتِ؟

- أنا في مدينة نصر عند مسجد السلام.. المهم اسمعني أرجوك فربما لن يكون أمامنا وقت.. أنا تركت لك حقيبة في خزنة بمطار القاهرة.. خزنة رقم تسعة عشر، وبرقم سري أ...

سمعت صرخة مكتومة.. وانقطع الاتصال.. وانقطعت أنفاسي معه. صحت كالمجنون "نسرين.. نسرين" من دون فائدة. حاولت الاتصال بالرقم فوجدته مغلقًا.

"مدينة نصر.. نسرين.. مدينة نصر.. مسجد السلام". رددت العبارة بصوت عالٍ وكأني أخشى عليها من النسيان. وفي أقل من خمس دقائق كنت في سيارة المعلم مُرضي على الطريق نحو مدينة نصر.. نحو الفتاة التي عشقها قلبي قبل عيناي من دون أمل ولو حتى باللقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"أعرف جيدًا ما أنا بصدد التهرب منه، لكني لا أعرف أبدًا ما أنا بصدد البحث عنه".

مونتين

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[6]
نسرين

حواري السيدة زينب - 2025

الساعة السادسة وعشر دقائق مساءً

رنة هاتف رحيمة انتشلتني من السريان في الماضي وأعادتني إلى الواقع. كنت أشعر بغضبي يتصاعد مع عودة ذكرياتي القديمة، لكني تماسكت. ضممتُ قبضتي بشدة وغرزت أظافري في راحتي.

للحظة تساءلت عن سبب مرافقتي لهذا المدعو حسام.. أنا لا أعرفه ولم أسمع بِاسمه يومًا.. والشعور الغريب بباطني لا يكفي لمرافقتي إياه.

فجأة أدركت السبب..

أريد أجوبة.

على مدار اليوم وأنا أضرب رأسي يائسة في محاولة لأتذكر أي شيء ممّا حدث بالأمس من دون فائدة.. كنت حرفيًّا كعابر سبيل يطرق على أبواب البيوت المهجورة.

وحده حسام من كان لديه الأجوبة، ولو أردت الحصول عليها فعليّ بالانتظار حتى الوقت المناسب. بطرف عيني رأيت حسام يرد على هاتفه ويوقف الضجيج.. أنصت باهتمام إلى الطرف الآخر، وأردف عابسًا قبل أن يغلق المكالمة:

- حسنًا سنلتقي هناك.

ثم ضرب بكفِّه عجلة المقود، وبدا عليه الاضطراب الشديد.

سألته بوجل:

- ماذا حدث؟

هجم بعض الرجال المسلحين على بيت عزام، وطوقوا المكان كله.

- وعزام قبضوا عليه.

- لا، تمكّن من الهرب في الوقت المناسب. عزام يتحكم في الحارة ولا أحد يدخل أو يخرج منها دون علمه.

قلت بسخرية فظة:

- يبدو كذلك.

- عزام لا يحب تعقيد الأمور.. سيختفي حتى تهدأ الأوضاع ثم يعود كل شيء كما كان.

قال عبارة "تهدأ الأوضاع" بثقة مبالغ فيها.. وتمنيت لو أكون مثله.

قلت بنفاذ صبر:

- لنذهب إلى الشرطة كي تساعدنا.

- مستحيل.

- لماذا؟!

- لسلامتك.

- معذرة.. نحن نتحدث عن الشرطة.

زفر، وقال:

- في الوقت الراهن علينا أن نعرف مع من نتعامل وماهي سلطته؟! ثم سنلجأ للشرطة.. أعرف أن الأمور تزداد تعقيدًا وخطورة لكن كل شيء سيكون بخير.. سنكون بخير.

نظرتُ إليه صامتة. لم تكن نظراته تلمح إلى شر أو خبث، بدا لي حينها أنه أكثر مني خوفًا وارتباكًا.

اعتدلت في جلستي، ذراعَيْ معقودتان أمام صدري، وحاجبي مرفوع:

- هل هناك ما تريد أن تطلعني عليه، حكايات أو أسرار من المفترض أن أكون على علم بها. على الأقل أخبرني عن علاقتك بأمي.

لم يرد، وترك لي الصمت، وقد انصب تركيزه على الطريق.

- وعدتني بالأمان والصدق، ويبدو أنك فشلت بخصوص الأمان فعَلَى الأقل كن صادقًا.

قال بنبرة عادية:

- الأوراق التي بداخل الحقيبة هي الإجابة على كل أسئلتك.. وما أن نجد من يقرأها لنا، سنفهم معًا كل شيء.. وعندها سأخبرك بـ...

لم يكمل.. اصطدمت بنا سيارة هامر من الخلف بعنف، وظهر بالجوار أكثر من سيارة بنوافذ سوداء لم أرَ منها سوى أشكال باهتة.. ثوانٍ، وانفتحت إحدى النوافذ على رجل مصري غليظ، يلبس نظارة سوداء، تحت بشرة بيضاء لوحتها الشمس.

بدا التجهم على جبينه..

زعق لحسام ولوَّح لنا بمسدس كاتم الصوت:

- توقف.

هبط الرعب في قلبي، وكذلك فعل مع حسام الذي اتسعت عيناه مذهولًا، وأحكم قبضته على عجلة المقود. وكردة فعل تلقائية تحت وطأة الخوف ضغط على دواسة البنزين بقوة.

مع انطلاق السيارة، وجدت نفسي أتمسك بالمقعد، فمن الواضح أن حسام كان خبيرًا في القيادة وسلك الطرق الأقل ازدحامًا. خلفنا انطلقت السيارات تبرق أضواؤها في وضح النهار وتلاحقنا بلا هوادة. عبر حسام من فوق أحد الكباري ثم مال مع ضفة النيل يسارًا، وسار مسرعًا في اتجاه مستقيم، ويبدو أنه كان يستمتع بالمراوغة بين السيارات وتفادَى الاصطدامات باحترافية يحسد عليها.. لكن كل هذا لم يكن كافيًا.

فقد أطلق أحدهم طلقات تحذيرية، فاخترقت واحدة الزجاج الأمامي، بينما تهشم الزجاج الخلفي مُحدثًا صوتًا مروعًا.

جذبني حسام من رأسي إلى الأسفل:

- اخفضي رأسك يا نسرين.

كان علي التفكير -وأنا محنية القامة ويداي فوق رأسي- في طريقة أخرى للهروب غير البقاء في السيارة، ليس لأن سيارة عزام "اللانوس" لن تصمد طويلًا أمام سيارات الهامر والفورد المهاجمة بضراوة فحسب بل لأنهم كانوا يتفوقون علينا عددًا وسرعة وقوة.. ولا مجال للتغلب عليهم أو الاستسلام لهم.

لحسن الحظ أن حسام كان يشاركني نفس الرأي والتفكير، لكنه كان أذكى وصنع في ذهنه خطة مدروسة ومُحكمة ستفي بالغرض.

مضت السيارة مسرعة، وبعد برهة توقفت وصرير عجلاتها ينبعث قويًا منها، ثم خرج حسام. فتحت بابي بسرعة وأسرعت نحوه، ثم اندفعنا جهة اليسار في طريقنا إلى حي السيدة زينب.

غربت الشمس من خلفنا، وتعالت أصوات أذان المغرب في كل مكان ومعها أصوات الزوار والمارة وأبواق السيارات.

كان حي السيدة زينب، وما يزال، مكانًا من أماكن المدينة الكثيرة التي تعج بالسياح طوال العام، صباحا ومساءً. هنالك الشوارع تضج دومًا بالحركة، والمقاهي، والمطاعم، ومحلات التزين والتماثيل، وعلى جانبيه باعة يفترشون الأرض من حولهم ببضائع متنوعة من أقمشة وملابس وأطعمة وهدايا وإكسسوار.. ويتوسط الحى -بمأذنته العالية- مسجد السيدة زينب أحد أكبر وأشهر المساجد في القاهرة، والذي مررنا به في نهاية أذان المغرب، وبدأ فمي بتلقائية يردد الكلمات:

- الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.

ودعوت الله في سِري أن ينجينا من هذا البلاء غير المفهوم، وينوّر بصيرتي وذاكرتي المفقودة..

وكلما كنا نتوغل في الحي أكثر تأكدت أننا في الوقت المناسب للمكان المناسب، إذْ كان الحي في هذا الوقت من العام مزدحمًا للغاية. ومن السهل أن نختلط بالحشد ونتسلل بين الناس، ومع خبرة حسام

بالمكان استطعنا أن نشق طريقنا في أكثر الأماكن ازدحامًا ونختفي وسط بحر الناس.

- نجونا.

قلت لاهثة بعد مسافات ركض طويلة.

وتمنيت أن يتوقف حسام ولو لثوانٍ كي ألتقط أنفاسي قليلًا.. لكنه لم يفعل.. وظل يجرجرني جرًّا ويدفعني للركض كما لو كنا لانزال مطاردين.

- توقف أرجوك.

- سنفعل، لكن تحمّلي قليلًا.

عندما وصلنا أخيرًا إلى الطريق العام بعد أن انقطعت أنفاسي شبه نهائي، اتجه حسام نحو حافلة عامة تتحرك ببطء، ثم دفعني لأقفز بداخلها.

في الحافلة، حاولت باستماتة أن أدفع جسدي دفعًا لأصل إلى مكان يسمح لي بالوقوف! إذ كانت الحافلة مزدحمة على آخرها ولا سبيل لتقف بكلتا قدميك وذراعيك كاملًا.. ولكن مع الدفع المستمر ومساعدة حسام تمكنت من إيجاد فجوة مريحة قرب مقعد فردي تجلس عليه فتاة جامعية منكبة على قراءة رواية "الزعفرانة".

وقفتُ بجوارها لاهثة. وبعد لحظات، استدرت لأكون وجهًا لوجه أمام حسام كي الْتمس فيه الأمان. وجدته أطول مني بقليل لكنه عريض الكتفين، قوِي العضلات من النوع الذي تشعر معه الفتاة بالأمان بشكل غريزي.

كان صدره يعلو ويهبط بقوة من شدة الإنهاك.. وحبّات العرق تتلألأ في الفراغ بين ياقة قميصه كحبات الندَى. أغمضت عيني قليلًا لأستعيد رباط جأشي وأتحكم في سرعة أنفاسي، ثم رفعت رأسي ونظرت إليه، فبدت عيناه الخضراوان الحادتان لطيفتين منهكتين للغاية. أطرقت رأسي مجددًا وشعرت بدفء أنفاسه على شعري، وذراعيه المشدودتين شبه ملفوفين بإحكام حول خصري.

شوشت على كل أفكاري وحواسي المختلطة بأن نظرت حولي وتمعنت في وجوه الركاب. وقع نظري أولًا على رجل أصلع مكتنز باللحم يرمقنا خلسة كل حين ويبتسم ببلاهة. ومن خلف ظهره كان ثمة امرأة في الستين من العمر تمصمص شفتيها وتتأملنا بازدراء صريح..

أعرضت عنهم ونظرت إلى الجانب الآخر، فرأيت آخرين يتطلعون نحونا بنفس الطريقة ومعظمها خلسة وبعضها صريحة.. لا بُدّ أن مخيلتهم الجامحة أوحت لهم بأن ما اجتمع شاب وفتاة في حافلة عامة إلا وكان الشيطان ثالثهما وليس مطاردات وألغاز وذكريات مفقودة.

في الحقيقة لم تزعجني النظرات بقدر ما أزعجتني الروائح.

عشرات الروائح المؤذية لحاسة الشم.

شعرت بالاختناق ومع الخوف والإرهاق كدت أن أفقد الوعي لولا أن سيطرت على نفسي، وقمت بالتفتيش في ذاكرتي عن موقف بعينه! كي أعزل نفسي عن النظرات والتمتمات ومنظر الشوارع التي تمر عبر النوافذ كمراحل عمرية مختلفة لشخص واحد...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[7]
نملة المجاري

بنها - 2010

في أولى سنواتي بالمدرسة، كنت طالبة انطوائية تجلس في آخر ركن بالصف، كنت أراقب الفتيات والفتيان في صفي من خلف نظارتي الطبية، وأدرس حركاتهم وإيماءاتهم كواجب مدرسي يومي، بينما أبقى وحيدة مهملة من الجميع، يغشاها كدر وحزن طوال اليوم.

أكاد -ورغم مرور السنوات- أسمع أصواتهم وصيحاتهم وغناءهم للنشيد الوطني في الصباح بنفس القوة والنظام.. بما فيهم جلال البدين وهو ينعتني بـ"نملة المجاري".

كنت يومئذ طالبة في ثالثة ابتدائي، أما جلال فكان أكبر مني بعامين أي في السنة الخامسة من سنوات تلك الابتدائية، وأثقل مني بعشرات الكيلو جرامات، وزنه الزائد مع وقاحته المزعجة أباحوا له حق التعدي على الأصغر، والأضعف في المدرسة، وكنت أنا بضآلتي وصمتي المهين واحدة من أفضل فرائسه. كان جلال في كل يوم تقريبًا يعترض طريقي كغول عفن ثم ينتزع حقيبتي، ويفرغ محتواها على الأرض.. ولو راق له شيئًا يأخذه عنوة، ويرحل هانئًا مزهوًا بنفسه.

لو كنت اشتكيت لأمي أو للمديرة ولو لمرة واحدة، لربما كان الأمر قد توقف عند هذا الحد، وبقيت وحيدة مهملة طوال حياتي، لكني حمدًا لله لم أفعل، وأثرت الصمت والتخفي عن نظره بقدر المستطاع كفأر جبان يتوارى في جحره.. إلى أن جاء ذلك اليوم.

يوم بدأ كأي يوم عادي لا يبشر بخير أو شر، تصطحبني أمي إلى المدرسة صباحًا ثم تعود لتأخذني بعد الظهر.. غير أنني بداخلي كنت أغلِي من الغضب، وأشعر وأنا منطوية في ركن هادئ وقت الفسحة أن حياتي مقيدة وكريهة تحت رحمة وتزمُّت أمي غير المبرر دائمًا!

وهناك جاءني صوته.

"يا نملة المجاري".

رأيته يقف أمامي وعلى شفتيه ابتسامته المعهودة.. ابتسامة خبيثة ممزوجة ببلاهة مفرطة. وكعادته، مد يده إلى حقيبتي المدرسية وانتزعها من بين ذراعي بقسوة. ولدهشتي ودهشته معًا. فوجئت بنفسي أسحبها، وهي في منتصف الطريق، بنفس السرعة والقوة، وأعيدها إلى حضني، مصوبة عيناي نحوه في تحدٍّ. استشاط جلال غضبًا أمام رفاقه المتابعين للمشهد بنهم وحيرة.

ولحفظ ماء الوجه صفعني على خدي، وضربني على صدري ضربة قوية أفقدتني القدرة على التنفس لبرهة وجيزة ملأها الغضب. عندئذ لم أشعر بنفسي إلّا وأنا أقترب منه وأركل الساق ما بين القدم والركبة، وفي نفس اللحظة، ألكمه في بطنه بقبضة مكورة حملت كل ما اختزلته لسنوات من ضعف وعجز وحيرة، وغضب مكبوت.. ولمّا انحنى عوده متألمًا، قمت بصفعه كما صفعني، ودفعته بحركة

درامية ليراه الكل على الأرض يتلوى، ويئِن ككلب مجروح، وعلى جانب فمه نزل خيط طويل من دم أحمر قاني يشي بخطورة حالته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقيت لدقائق طويلة منكمشة على نفسي في مكتب مديرة المدرسة التي قالت بلطف:

- فتاة مهذبة مثلك ما كان عليها أن تفعل هذا.. الشجار كالصبية ليس بأمر مستحب.. أنتِ أفضل مِن هذا.

لم تقل شيئًا آخر، وظلت تخرج، وتدخل من الباب، وكأنها لا تراني، فحدست بسذاجة أن الأمر قد يكون انتهى.

دخلت أمي علينا في المكتب بوجهٍ ممتقع شاحب:

- ماذا حدث؟ نسرين هل أنتِ بخير؟

كانت أمي -المعروفة بين الجميع بأم نسرين- امرأة طيبة، ودودة، هادئة الطباع، ومحبة لعمل الخير، وتقديم الدعم النفسي، والمادي للمحتاجين، وغير المحتاجين فاكتسبت حُب الكل واحترامهم.

استقبلتها المديرة بكل ترحاب، وعرضت عليها الجلوس، وطلبت منها أن تهدأ. وبأبسط الكلمات وألطفها شرحت لها كيف تعديت بالضرب على طالب يكبرني بعامين، وتسببت له بنزيف في المعدة.

لم أفهم وقتها معنى نزيف في المعدة وخطورة الأمر، حتى لمحت نظرات أمي وهي تتحول من الفزع إلى الصدمة إلى الذهول إلى عدم الفهم وأخيرًا إلى الغضب.

لحظات ثقيلة مرت، ثم أكملت المديرة:

- سأعتبر ما حدث مجرد لعب أطفال.. ومن الأفضل أن ينتهى الأمر بين الأهل بالتراضي.

هزت أمي رأسها وقالت إنها ستتكفل بعلاج الطالب حتى يتم شفاؤه على خير، وأكدت لها أن الأمر لن يتكرر أبدًا مرة أخرى. وعدنا إلى البيت مشيًا على الأقدام جنبًا إلى جنب، مكللين بالصمت، والخوف من القادم.

كانت لأمي ذاكرة مُعدمة، شأنها شأن كل الأرامل الذين لا ينقبون في الماضي ولا يتحدثون عنه، فمن بين سنوات عمرها التي اقتربت من الأربعين عامًا وقتها، ما كانت تذكُر منه شيئًا تقريبًا.

أما ذكرياتي فكانت مشوشة ومبهمة إلى أن جاء يوم المصنع وانتقالنا إلى بيت القليوبية ورأيت غرفتي ذات الجدران المنقوشة بصور كارتونية، الأثاث المنجد بلون السماء، المطبخ الفسيح، وشرفة حجرة المعيشة التي قضيت معظم أوقات طفولتي أجلس فيها، أتابع حركة المارة والسيارات لأشخاص يذهبون إلى أعمالهم أو التسوق أو التنزه ثم يعودون أدراجهم منها.

كنا نعيش بمنطقة الفيلات في بنها -عاصمة القليوبية- والبيت يبعد حوالي مئة متر عن مدرستي. وبخلاف البيوت المجاورة التي بدأت تتحول لعقارات شاهقة الطول، كان منزلنا من طابقين فقط،

مُحاطا بحديقة خضراء يانعة. كنا نقطن في الطابق العلوي منه، أما الطابق السفلي فكان يعيش به امرأة عجوز أناديها بـ"تيتة زبيدة" وهي امرأة طيبة وحنونة تعاملني كحفيدة لها، وربما أقرب حفيدة على قلبها، وكانت هي المالكة الأصلية للفيلا منذ عقود، وتقول بفخر إنها بنفسها أشرفت على بنائه "طوبة طوبة".. لكن بعد وفاة الزوج اختلف الأبناء على الإرث، وما بين بيع وبقاء المنزل حسم الأمر على بيع الدور العلوي واستبقاء الدور السفلي لتيتة زبيدة مع حارس المنزل عم سعيد وزوجته الثرثارة.

وبين الفينة والأخرى يأتي أحد أبنائها مع أفراد أسرته في زيارة سريعة لا تتعدى الساعتين. واليوم الوحيد الذي يجتمعون فيه كأسرة سعيدة متماسكة هو أول يوم من عيد الأضحى، حيث يظهرون تباعًا بعد صلاة العيد، ونشهد جميعًا على ذبح خمسة أو ستة خرفان مكبلين بالحبال عند البوابة الأمامية للمنزل. وكنت أبذل قصارى جهدي كي لا أتقيأ أو أفقد الوعي وأنا أنظر إلى الدم المتدفق من رقبة الذبيحة وأسمع حشرجة مروعة تخرج من حلقه المذبوح. وكان الأمر يزداد هولًا عندما نجتمع مع أسرة الحاجة زبيدة على الغداء، وأدرك أن اللحم الشهي المتبل الذي يلتهمونه بتلذذ كان ملك لروح ترعى وتتنفس قبل قليل.

ولما سألت أمي عن الهدف من كل هذا. قالت إن المسلمين بتلك الطريقة يشكرون الله تعالى على نعمِه الكثيرة، وللتوسعة على الفقراء والمحتاجين. فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم:]إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)[، والرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول في الحديث الصحيح "إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أي في يوم عيد الأضحى نصلي ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس مِن النُّسك في شيء".

وذَكرت قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام، عندما رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده، فلما همّ بتنفيذ رؤياه واستسلم كل منهما لقضاء الله، جاء الفداء من السماء، قال الله جلّ وعلا في سورة الصافات: [وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107)].

تذكرت كل هذا ونحن نمر من البوابة الأمامية ونرتقي السلالم المؤدية للطابق الثاني. وترددت ما بين اللجوء إلى تيتة زبيدة لتشهد على الواقعة، أم اللحاق بأمي حتى البيت، وبسبب هذا التردد كانت أمي قد فتحت باب البيت وجذبتني بعنف إلى الداخل، ثم قبضت على ذراعي بقوة، فتأوهت.

- أتتشاجرين الآن كالحيوانات؟

اعترضت قائلة:

- لا هو من..

لم أكمل.. جذبتني سريعًا من ذراعي إلى الشرفة، وأشارت إلى مجموعة صبية يلعبون في الشارع مع الكلاب الضالة، رأيتهم أكثر من مرة وحذرتني أمي من النظر إليهم. كانوا أشداء وقذرين. يدخنون. ويجمعون أشياء من النفايات، الأوراق، وعلب المياه، والصودا، والأخشاب، وتقريبًا كل شيء.

وقالت ثائرة:

- فقط هم من يحق لهم هذا، أما أنتِ فلك عقل يفكر، ولسان يتكلم استعمليهما وكوني إنسانة.. إياكِ أن تكرري ما فعلتيه مرة أخرى أتفهمين؟".

هززت رأسي مرتين، وسمعتها تقول "أنتِ معاقبة لآخر الشهر وممنوع الخروج من غرفتك إلا بالإذن.. اتفضلي".

هرعت من فوري، وتواريت خلف الباب والدموع تنساب مني كنهر غزير لا يتوقف عن الجريان. فكرة واحدة فقط ظلت تشغلني وتتردد في ذهني في الساعات والأيام المقبلة:

"لِمَ لم تسألني أمي ماذا فعل الصبي، لأرد عليه بالضرب أو أتعامل معه كالحيوان على حد قولها!".

في الصباح، ذهبت إلى المدرسة بخطى ثقيلة مرتعدة أشعر أن الفتاة المجهولة التي كنت عليها ستتحول في نظر الجميع إلى الفتاة المجنونة الشرسة مثل الحيوانات، لكن، ومنذ اللحظة الأولى في المدرسة بدت الوجوه والنظرات مختلفة..

نظرات مريحة بعيدة كل البعد عن التوجس أو الاستياء، فحدست أنّ أمرًا جليلًا سيحدث.

استقبلتني إحدى الفتيات ذائعات الصيت في طابور المدرسة، وعانقتني بقوة وكأننا صديقات مقربات، ثم همست في أذني:

"شكرًا، لأنك أخذت حقي من البدين".

ومن بعد ذلك توالت عبارات الشكر والثناء من الكثيرين -ذكورًا وإناثًا- لشجاعتي وقوتي الكامنة على حد قولهم، وبدأ البعض يتقرب مِني بدافع الفضول، والمؤانسة مع أشهر فتاة في المدرسة.. كنت أعلم هذا.. وقررت أن أستغله لصالحي. وهو ما نظرت له أمي بعين السخط لكنها لم تقل شيئًا، إذْ كان من الضروري بالنسبة لنا أن يكون لي أصدقاء ألهو معهم كسائر الأطفال.

وبعد مُضي أيام عاد جلال إلى المدرسة، وما لبث أن أنتقل منها بعد أسبوع واحد، وبدا أنّ أمي أيضًا قد تناست غضبها وأظهرت لي القليل من الحنان والحب.. لكن تلك الحادثة سلطت الضوء على أركان التمرُّد والعصيان بداخلي، وكنت أتخذ موقفًا معارضًا لكل فكرة تعبر عنها في أي موضوع، وكانت كل ملاحظة تبديها أمي، أتلقاها برفض يصل إلى حد العدائية، لتزداد علاقاتنا سوءًا وحياتنا كأسرة أكثر تفردًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[8]
جُمعة الغضب

بنها - 28 يناير 2011

بعد مرور عدة أشهر على تلك الواقعة تحولت أمي -بين عشية وضحاها- من عاشقة الأفلام الكلاسيكية لمدمنة سياسة وأخبار.. تتربع على الكنبة كل يوم أمام التلفاز وتحملق فيه بشغف وتأثر لعدة ساعات، وذات يوم تقدمت منها ببطء يدفعني حب الاستطلاع.

ولاحظت ما كان يعرضه التلفاز: صورًا ومشاهدَ متفرقةً لرجال ونساء بمختلف الأعمار، وبأعداد ضخمة تركض في كل مكان.. رجالًا مسلحين يطلقون قنابل مسيلة للدموع ورصاص حي ومطاطي.. حرق وتدمير بيوت ومباني.. والأصعب كانت مشاهد الفوضَى والبكاء والإغماءات ونظرات الرعب والفزع في عيون لم أرَ مثلها من قبل.

مشاهد فظيعة! بشعة! ومثيرة للهلع!

غيرت أمي القناة حينما أحسّت بوجودي، فسألتها:

- ماذا يحدث؟

- لا شيء.. هل أنتِ جائعة؟ سأحضر لك الغذاء.

كان من الممكن أن أنسى تلك المشاهد رغم بشاعتها، لولا أن التليفزيون المصري أذاع في صباح اليوم التالي خطابًا رسميًّا لأحدهم، لمحتُ أمي تقف متخشبة أمام التلفاز عاقدة ذراعيها أمام صدرها، وقد غابت تمامًا عن العالم.

في تلك المرة رأيت على الشاشة رجلًا مسنًّا له شعر أسود مصبوغ، وفي نبرة صوته مزيج من الجدية والحزن، فاستبدّ بي حيرة مضاعفة، وقلت متسائلة:

- من هذا؟

فردت:

- إنه الرئيس محمد حسنى مبارك.

سمعت بِاسمه من قبل لكن تلك كانت المرة الأولى التي أراه على التلفاز.. سألتها:

- وماذا يريد؟

قالت بعصبية:

- شششش... دعيني أسمع.

انزعجتَ، ورحتَ أنصت لكلام الرئيس الذي لا يمكن لطفلة بعمر التسعة أعوام أن تفهم منه كلمة. ولما انتهى، عدتُ لسؤال أمي التي ارتمت على الكنبة، ووضعت يديها على جبينها:

- أمي ماذا قال الرئيس محمد حسنى مبارك؟

فردت بصوتٍ خافت بالكاد سمعته:

- يريد أن نتوارى في بيوتنا، ونغلق الأبواب علينا جيدًا، فالأيام القادمة ستشهد تغيرات، وأهوال كثيرة.. الله يستر.

لم تزد، وطلبت مني العودة لألعابي، وفي غمرة إحساس حاد بالصغر والوحدة ابتعدت عنها، وقد تفجّر برأسي الكثير من الأسئلة.

فكرت في "تيتة زبيدة"، فدلفت إلى غرفتها صباح اليوم الموالي، إذْ كنت أعرف أنها لن ترفض لي طلبًا أو سؤالًا ويمكنها بطيبة قلبها، وخبرة السنين أن تشبع فضولي. ولحسن الحظ، أنني كنت على حق.

بدَتْ على "تيتة زبيدة" الدهشة والسرور للحظات، ثم أردفت:

- حسنًا.. الشعب يقوم بثورة على الرئيس.

- وما معنى ثورة؟

فكرت "تيتة زبيدة" في أبسط تعريف، وقالت:

- الشعب يريد تغيير النظام، وعزل الرئيس مبارك.

- ونحن من الشعب!

ابتسمت، وقالت:

- أكيد.

قلت وأنا أفرك يدي:

- ولماذا يريد الشعب.. أقصد نحن كشعب أن نغير النظام، ونعزل الرئيس مبارك.

- لأنه خيّب آمالنا على مدار سنوات حكمه، وحان وقت التعبير عن ذلك.

فكرت قليلًا في كلامها، ثم أردفت:

- وأنتِ مع الثورة أليس كذلك يا تيتة؟

- طبعًا.. فمن حقّ كل إنسان أن يعبر عن رأيه بالطريقة التي يهواها ثم يعود إلى بيته آمنًا مطمئنًا أنّ غده لن يكون كأمسه.

- إذًا كيف سنعبر عن آرائنا وأنا وأنتِ نجلس هنا على السرير؟

ضحكت ضحكة سريعة، وقالت:

- بقلوبنا حبيبتي، فطفلة بعمر التسعة أعوام، وعجوز تنتظر الموت ماذا سيفعلان غير المشاركة بقلوبهن.. يقول الله عزّ وجلّ: [لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا]. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستَطع، فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".

عرفت فيما بعد أن الشعب كان منقسمًا ما بين مؤيد ومعارض، وبدا هذا جليًّا على أبناء "تيتة زبيدة". فالعم مجدى -الابن الأكبر- يؤيد الثورة والثوار ويرى في انهيار نظام حكم مبارك بداية عصر النهضة والحرية والعدالة بتطبيق الشريعة الإسلامية واتباعها، ضغط على فكيه بقوة، وأضاف:

- سندعم الثورة بأرواحنا وأموالنا حتى تنقلب الأدوار، ونرد لهم الصاع صاعين.

رمقته "تيتة زبيدة" بنظرة صامتة ولم تعلق، وبعد يومين جاء عم صلاح وكان هو الآخر يؤيد الثورة والثوار، لكن على نحو مغاير، هو يرى أن الثورة قامت من أجل الدخول في عصر التنوير والتخلص من العادات والتقاليد البالية، فضلًا عن إدخال بعض التغييرات في أصول الدين، والتفكر بشكل عقلاني يقوم على الحِجج والبراهين الحسيّة، وأضاف:

- الحرية تعني التخلص من كل القيود سواء في السياسة أو في الدين أو في الحياة عمومًا.. الحرية تعني أن تفعل كل ما تريد وقتما تريد.

ولاحظت أن "تيتة زبيدة" ترمقه بنفس النظرة الصامتة، ولم تعلق.

وبعد أيام قليلة، جاء عم رفعت -الابن الأصغر- وهو معارض للثورة والثوار بشدة واصفًا إياهما بأنهما نتيجة مؤامرات خارجية، وأنّ الغرب يسعون لتدمير مصر من خلال تدمير الشرفاء.. تنشق بحرقة، ثم أردف:

- شرذمة حقيرة تقف أمام أسيادها، منذ متى والعجول لهم حقوق؟ سيدفعون الثمن غاليًا.. فهذه البلد مذكورة في القرآن، ولن نسمح لهم بتدميرها ولو بقتلهم.

فرمقته "تيتة زبيدة" بنظرة صامتة وإيماءة حزينة من رأسها، وأيضًا لم تعلق. لكن تضارب الآراء هذا أثار اضطرابي، وعصف بي شك أنّ الثلاثة لا يجمعهم دم واحد، ولا حتى صلة قرابة، فالاختلافات بينهم واضحة في كل شيء سواء جسديًّا أو فكريًّا. ولما أفصحت عمّا يجول في خاطري لـ"تيتة زبيدة" ضحكت بملء شدقيها حتى سالت دموعها:

- هموت من الضحك يا بنت زهرة.. للحق أنا نفسي بشك أنهم أبناء بطني ومن ضحيت بعمري وفكري وقلبي لأجلهم.

وبعد أن انتهت نوبة الضحك، استأنفت:

- لا يخدعك الكلام حبيبتي، فلا أحد منهم صادق.. كل واحد يتحدث لنفسه، وينشغل بالمستقبل وما يترتب عليه لصالحه فقط.. أما الدماء، والألم، والخوف، والعزاء على أرواح الشهداء، وأهاليهم فلا

أحد منهم يهتم أو حتى يفكر بهم.. أنهم يقولون ما لا يفعلون.

لويْتُ شفتي في ضيق، وقلت:

- لم أعد أفهم شيئًا.

- أعرف.. لكن يومًا ما ستفعلين، وعندئذ ستدركين أن هناك من يتحدث لمصلحة الآخرين وهناك من يتحدث لمصلحته الشخصية فقط. فلا تسمحي لأى أحد أن يخدعك ويستغل ضعفك أو عنفوان شبابك تحت أي ظرف.

في مساء اليوم التالي -الموافق 11 فبراير 2011- صدر بيان من رئاسة الجمهورية يعلن فيه رئيس الجمهورية محمد حسنى مبارك تخليه عن منصب الرئاسة وتسليم إدارة البلاد للقوات المسلحة.

صرخت أمي في فرحة عارمة، وكذلك فعلت "تيتة زبيدة"، وعم سعيد البواب وزوجته وأنا. وشهدت مصر احتفالات حاشدة بعد أن تحقق الحلم شبه المستحيل في مشهد مهيب يقشعر له الأبدان...

مصر بتفرح أمام العالم...

العالم ينبهر بقوة الشباب...

الشباب يسطرون بدمائهم المستقبل...

المستقبل يتضارب كتلاطم الأمواج في بحر هائج مظلم حائر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"تكون بين الناس خيوط تربطهم، لكنهم لا يرونها إلا في وقت مخصوص، وقد لا يرونها أبدًا".

يوسف زيدان

[9]
نسرين

من القاهرة إلى الغربية - 2025

عدت من الماضي على صوت حسام في الحافلة:

- نسرين.. هل أنتِ بخير؟

أومأت له بالإيجاب فاستطرد:

- هيا لقد وصلنا.

تبعته إلى الباب الأمامي وترجلنا من الحافلة، وقد سُررت أن عدد الركاب قد تناقص إلى حد يسمح بالمرور بينهم دون مشقة.

لكن سروري هذا لم يدم طويلًا، وقد أحسست بغمة سوداء تنفجر داخلي وأنا أرى عزامَ منتصبًا على الطرف الآخر من الشارع تحت شجرة كثيفة الأوراق. راح عزام يتلفت يمينًا ويسارًا أكثر من مرة كلِصٍّ ساذج، ثم اقترب منا عابسًا.

- هل أنتما بخير؟

قال حسام:

- الحمد لله، بخير.. هجم علينا بعض الرجال في الطريق، ونجونا منهم بأعجوبة. زمّ حسام شفتيه في حزن، وأضاف:

- عزام.. أنا آسف.. فسيارتك!

- لا تشغل بالك بها أبدًا.. المهم أنكما بخير.. لكن قل لي كيف وصلوا إليكما تلك المرة؟

- لا أعرف.. فكرت كثيرًا في الأمر من دون إجابة.

ردَّ عزام بثقة:

- أنا أعرف، أو كنت أعرف.

ثم بحث في جيب سترته، وناول حسام هاتفًا خلويًّا. الهاتف ذاته الذي كان معي في الصباح، لكنه بدا في حالة جيدة وصالحة للاستخدام:

- لقد كانوا يتتبعون خط هذا الهاتف، وبهذا وصلوا إلى نسرين في المطار بالأمس ثم إليها في مدينة نصر، ثم إلى بيتي.

قال حسام:

- لكنه لم يكن معنا في المطار فكيف وصلوا إلينا؟

- لا أعرف.. لكن يبدو أنّ لهم طرقًا خاصة.

سأله حسام باهتمام:

- وهل لايزال الخط في الهاتف؟

- لا، لا.. رميته في بالوعة نتنة تليق بهم.

ضحك شامتًا. قال حسام في ارتياح:

- جيد.. ماذا وجدْت على الهاتف؟

- لم نجد مشكلة في إصلاحه مع الحفاظ على بياناته، ويمكن القول أن الهاتف كان ملكًا لزهرة.

"زهرة" أمي.. استغربت كثيرًا من وجود هاتفها معي، واستغربت أكثر من طريقة نطق عزام لاسمها كما لو كان يعرفها أيضًا.

استأنف عزام:

- اشترته زهرة يوم الاثنين، وعملت منه أربع مكالمات فقط، ولحسن الحظ أن الهاتف سجل لنا تلك المكالمات بشكل مباشر، فسَجل مكالمة بين زهرة وبين نسرين، وأخرى بينك أنت يا حسام وبين نسرين، ومكالمتين بين زهرة وشخص أجنبي يدعى ديفيد.

هتفت بسرعة:

- الدكتور ديفيد!

- أتعرفيه؟

- أكيد.. الدكتور ديفيد دايور هو أشهر دكتور عظام في القاهرة.. اعتدت الذهاب إليه برفقة أمي للكشف في عيادته تقريبًا مرة كل شهرين بسبب..! بسبب مشكلات وراثية. قلت الجملة الأخيرة بتردد.

سأل عزام:

- أين هي عيادته؟

فقلت على الفور:

- في جاردن سيتي في نفس شارع بنك عودة.

أخرج ورقة وقلمًا وحاول كتابة الاسم والعنوان، فبدا واضحًا أنه يعاني من مشكلات إملائية في اللغة العربية وليست الإنجليزية فحسب.. عاجَلَهُ حسام وكتب الاسم والعنوان باللغتين بخط واضح وجميل، ثم أعاد له الورقة والقلم، وأردف وهو ينظر إليّ:

- حسنًا.. لنستمع إلى التسجيلات الآن.

المكالمة الأولى حدثت في مساء يوم الثلاثاء.. اتصلت أمي بديفيد وبدا صوتها حزينًا مخنوقًا:

- أهلًا ديفيد أنا زهرة.. احفظ هذا الرقم عندك.

- تمام يا زهرة.. أعرف أنّ الأمور حاليًا معقدة للغاية، وكلامي ربما لا فائدة منه، لكن أنا متأكد إننا سنجد الحل قريبًا، وكل شيء سيكون على ما يرام.

- شكرًا لك ديفيد.

رد ديفيد بحسرة:

- على ماذا! ليتني قادر على فعل شيء.

فقالت أمي بأسف:

- أنت تحاول إصلاح ما أفسدته.. ولذلك أشكرك رغم كل شيء.

انتهت المكالمة الأولى سريعًا، وفتح عزام المكالمة الثانية والتي تمت الساعة الخامسة فجر يوم الأربعاء بيني وبين أمي.. كان صوتها ملهوفًا لا يتناسب مع نبرة صوتي الناعس، والذي لم يختلف طوال المكالمة.. فكانت على النحو التالي:

- ألو.. نسرين حبيبتي.

- أمي!. كم هي الساعة الآن؟

- حبيبتي.. يجب علينا أن نتحدث حالًا لكن ليس على الهاتف.. أنا أرسلت السائق ليأتي بك إلى البيت.. جهزي نفسك.

- ماما.. ما بك؟! هل أنتِ بخير؟

صمتت زهرة ثم أكملت:

- أتذكرين يوم المصنع.. يوم الحقن.. أعلم أنك تذكرين.. حان الوقت لنتحدث عنه يا نسرين.. حان الوقت لتعرفي كل شيء.

انتهت المكالمة الثانية.. لكنها لم تنتهِ من الطرق على رأسي. بانت الصورة لي أو على الأقل جزء منها، فالحدث الذي هربت منه ومن الاستفسار عنه طوال حياتي يدور الآن حولي ويحدجني بسهامه.. فماذا كان يا ترى؟ وما الذي تورطت فيه؟

ابتلعت ريقي بصعوبة، ولمحت نظرة الشفقة والصمت من عزام وحسام، وكأنهما تركا لي مجالًا لأستعيد ذاتي وتركيزي من أجل المكالمة الثالثة.

كنت مرتعبة، بل ومرهقة للغاية، ومع ذلك حاولت إخفاء ضعفي بإشارة من رأسي إلى عزام كي يستمر. أشار حسام بدوره إلى عزام فضغط الأخير على التسجيل الثالث، وسمعت أمي تقول:

- أهلًا ديفيد.. نسرين هتكون عندك في خلال ساعتين.. اعتن بها جيدًا.

فقال ديفيد بصوته الهادئ المضجر الذي عهدته لسنوات:

- تمام.. زهرة.. أنا في انتظارها.. وسأبذل كل جهدي لأجلكما.

- أعلم هذا. وانتهت المكالمة.

صمت حسام قليلًا.. ثم أردف وهو يضغط على الشاشة:

- حسنًا لنستمع إلى المكالمة الأخيرة.

باغتني صوتي وهو يخرج من التسجيل الأخير مرعوبًا ومتقطعًا وكأنني كنت أركض أشواطًا:

- حسام.. حسام الخليل.

قال حسام بصوت ناعس يحاول الانتباه:

- نعم.. من أنتِ؟

قلت له:

- أنا نسرين.. نسرين الزهار.. ماما قالت لي أنك شخص جيد وموثوق فيه.

قال حسام بلهفة:

- نسرين! أين أنتِ؟

- أنا في مدينة نصر عند مسجد السلام.. المهم يا حسام اسمعني الآن.. أنا تركت لك حقيبة في خزنة بمطار القاهرة.. خزنة رقم تسعة عشر، برقم سري أ...

لم أكمل الرقم، وسمعت صوتَ صراخٍ مكتومًا وحسام يصرخ كالمجنون بِاسمي عدة مرات، ثم انقطع الاتصال.

الْتفتَ إليَّ حسام على حين غرة، وسألني برجاء:

- أتذكرين أيًّا من هذا؟

هززت رأسي بالنفي، وقد صرت غير قادرة على الكلام أو حتى الفهم، فاستأنف وهو يستحضر الأحداث في خياله:

- مِن تلك التسجيلات يمكن التخمين أن زهرة اتصلت بك وقت الفجر، وطلبت منك العودة إلى بنها لأمر مهم، تحدثتما قليلًا، ثم اتصلت بديفيد، وقالت له إنك في الطريق إلى بيته، ثم. عضّ حسام شفتيه في خيبة أمل، وأردف:

- فراغ.. ثقب أسود كبير لا يعلم بفحواه إلا ديفيد.. علينا أن نجده إذًا في أقرب وقت.

قاطعه عزام بقوله:

- سأبدأ بالبحث عنه حالًا.

- كن متواريًا عن الأنظار، وحريصًا وأنت تفعل.

أومأ عزام برأسه، ولم يعقب. مد أصابعه بالهاتف نحوي فأخذته بحركة لا إرادية.. واستطرد حسام:

- أين مؤنس؟

- مع الأسف كان في مؤتمر طبي بشرم الشيخ، ولما علم بما يحدث ترك كل شيء وهو الآن عائد في الطريق.. سأكون معه خطوة بخطوة لا تقلق.

توجه لي حسام بالحديث، وطلب مني أن أسلم عزام الحقيبة ليأخذها إلى مؤنس، وأضاف أن مؤنس طالب في كلية الطب وسيفهم أكثر في الأوراق الطبية والأشعة التي بالحقيبة. فترددت، وضممت الحقيبة أكثر إلى صدري، وعجزت عن التنفس.

نظرت إلى عزام، ثم إلى حسام وتعابير هذا الوجه الذي يهيمن عليه الأرق والاضطراب الشديد، ثم تذكرت قولي في التسجيل "ماما قالت لي أنك شخص جيد وموثوق فيه".

وسمعته يقول برجاء:

- نسرين من فضلك.. ثِقِي بي.

"كف يا عقل عن التخوين.. ألا يمكنك أن تثقي بشخص واحد؟ شخص واحد على الأقل في هذا العالم البائس". قلت في سري راجية.

ومددت الحقيبة ليد عزام الممدودة، فالتقطها سريعًا.. وسأل حسام:

- أين ستذهبان؟

- علينا أن نبتعد عن القاهرة، سنذهب إلى الغربية.

سألته في وجل:

- وماذا سنفعل في الغربية؟

- أمْلك بيتًا صغيرًا في إحدى القرى هناك، أعتقد أنه المكان الأفضل والأمن لنا حاليًا.

هز عزام رأسه مُؤكدًا على هذا، وأردف:

- فكرت في نفس الأمر. حسنًا.. سألحق بكما في الصباح ومعي مؤنس والحقيبة وكل ما تحتاج معرفته عن ديفيد.

قال حسام:

- إن شاء الله.

ردد عزام:

- إن شاء الله.

وما لبث أن ركض بعيدًا إلى أن غاب عن الأنظار.. فقال حسام:

- نحن بحاجة إلى سيارة أجرة.

سألته رغم علمي بالإجابة مسبقًا:

- إلى أين؟

- إلى قرية "شبرا بلولة". قرية ريفية بسيطة من قرى الغربية ستُعجبك وتُهدأ من أفكارك، والأهم أننا سنكون هناك بين الأهالي في أمان أكثر.. صدقيني.

قال، وتعلقت عيناه بسيارة أجرة تنعطف عند زاوية الشارع. أشار للسائق، فتوقف أمامنا. جلس حسام بجانبه وجلست أنا خلفه.. وقبل أن ننطلق أدار السائق المذياع على إذاعة القرآن الكريم، فصدحت الآيات بصوت قارئ فخم الصوت.

وبين الحين والحين يردد السائق: الله حي.. الله كريم.. ونِعْم بالله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومِن دون مقدمات فتح مع حسام حوار عن كرة القدم، والاتحاد المصري، وصراع النادي الأهلي مع الزمالك، وعن هذا النادي الجديد الذي دخل في الصورة. كرة القدم عند الرجال أشبه بالطبخ عند النساء.. فلا حوار يخلو من الحديث عنهما، ناهيك عن التوقف.

تركتهم، ورحت أعبث في الهاتف، لأتأكد بنفسي من عدد المكالمات وأوقاتها، وأعدت على مسامعي المكالمة الثانية والرابعة فزاد هيجان بواطني وانقباض قلبي، ولكيْ أصرف نظري عن التفكير بالأمر، ألقيت ببصري من النافذة وغصت في شوارعها. كان الجو يشي بهبوط الأمطار، والشوارع تبعث على الكآبة بشكل مريب، وقد ملأتها الرياح بسحب من الغبار وأوراق الأشجار المتساقطة وقصاصات متطايرة من صندوق القمامة.

تركنا الشوارع والحواري وخرجنا بعيدًا عن المدينة وأضوائها وألغازها إلى الطريق الزراعي الطويل الذاهب إلى.. لا أعرف.

أحسست بغتةً بالانقباض. وكأنَّ الماضي يعيد دورته، ولكن بدلًا من مرافقة أمي إلى مكان مجهول، بتُّ أرافق شابًّا غريبًا عني إلى مكان مجهول أيضًا. فهل تماديت في مرافقته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على بعد 92 كيلومترًا من شمال القاهرة وقفت سيارة الأجرة حيث أشار حسام للسائق وسط قرية "شبرا بلولة" كما سمعت الاسم.

ودعنا السائق، وانسلت إلى أنفي روائح عطرة وذكية تفوح في أرجاء القرية، وتزيد قوتها وتأثيرها كلما اقتربنا أكثر وتوغلنا في طريق مدكوك وسط المساحات الخضراء والضباب المشبع بالندى تحت

ظلام الليل.

تبعت حسام وأنا حائرة وجِلة، أقدم ساقًا وأؤخر الأخرى، كان الضباب يغطي القرية، وأنوار الشارع شحيحة ومتباعدة، فلم أرَ منها غير البيوت الريفية وكل ما نمر بجواره.. أهل القرى أغلبهم بسطاء ينامون بعد صلاة العشاء ويستيقظون مع الفجر، وبفضل موجة الصقيع تلك لَزَم الكل داره على فراشه الدافئ، ولم نرَ أحدًا في الطريق.

لكني أحسست بأصابعي ترتجف، وقدماي مخدرتين من شدة البرد.. وقد أدركت أن الرجفة التي تنتاب جسدي لم تكن ناجمة عن الخوف وحسب. كنت أتجمد بردًا.. وكذلك كان حسام الذي راح يسعل قليلًا، ويحثني على التقدم حتى توقفنا أمام بيت ريفي من دور واحد، مبني من القرميد الأحمر وله شرفة واسعة مفتوحة على الطريق. وعلى الأطراف. تقف بشموخ أشجار النخيل وشجيرات الورود.

اتجه حسام نحو باب البيت القائم فوق مجموعة من الدرجات، وأخرج سلسلة مفاتيح من جيب سرواله.. دس أحدهم في قفل الباب وأداره.

وجدت البيت من الداخل صغيرًا ودافئًا مفروش بالستائر والسجاجيد الداكنة، وهو يتألف من صالة ومطبخ بسيط يحتل جزءًا منه، ونافذة تطل على الشرفة الخارجية للبيت ومن ثم الطريق والحقول وما يجاورها من أراضي ومباني وبيوت، وغرفة نوم في نهاية الصالة فيها سرير لفرد واحد وخزانة ملابس. وحمام لا بأس بحجمه في أحد أركان الصالة. كان أشبه بمكتب أكثر منه مسكن لكن حسام فعل ما بوسعه ليبدو نظيفًا مرتبًا.

أغلقنا الباب خلفنا، وبقيت وحدي متسمرة عند العتبة، بينما تقدم حسام حتى ارتمى على الكنبة القريبة فاقد القُوَى تمامًا.

لحظات وقال حسام في زهو:

- هذا بيتي.. اشتريته قبل أسبوعين فقط، ولا أحد يعلم بمكانه سوى عزام.

انقبض قلبي، وعضضت على شفتي عند سماع اسم عزام. وتساءلت عن مصير الحقيبة التي بين يديه.

رنّ هاتف حسام، فالتقطه من جيب سترته، وردّ:

- أهلًا عزام، .. وصلنا.. جيد.. أهلًا مؤنس.

وتبع ذلك همهمات وصمت مريب من جانبه.

سَرَتْ قشعريرة في جسدي، وبدأتُ أتوجس قليلًا حتى قال قبل أن يغلق المكالمة:

- حسنًا.. أراكما في الصباح.

شعرتُ بذعر مفاجئ غريزي لفكرة أنّ أنا وحسام سنبقى بمفردنا في المنزل أثناء الليل.. وانتصبت أذني، واحتار عقلي بين البقاء والهروب.

ولكن إلى أين؟!

حتى أمي كنت لا أعرف لها مكان! وأخشى من أن أقع فريسة في يد من يحملون مسدسات..

على الأقل حسام لا يحمل مسدسًا..

ظلّت أفكاري مشتتة ومترددة، والخوف يكبل ساقي بأحمال فولاذية. ويبدو أن حسام سمع صوت تمزق أحشائي من الخوف فقال بهدوء:

- سوف نكون هنا في أمان لبعض الوقت.. لا داعي للخوف مني أبدًا.. أقصد.. أنا سأنام هنا على الأريكة، وأنتِ سوف تنامين في الغرفة تلك، وتقفلين عليكِ الباب بالمفتاح، في الغرفة نافذة مفتوحة على الطريق.. ولا تنسَ أن صرخة واحدة في منطقة ريفية كتلك تلم الخلق علينا في ثانية. ضحك ثم أضاف: سيأتي عزام ومؤنس في الصباح ومعهم كل ما نريد معرفته.. وقريبًا جدًّا سينتهي كل شيء، وتعودين لحياتك آمنة مُطمئنة.

هززت رأسي، ولم أعقب. فثمّة غصة في حلقي لن تنقشع مهما قال حسام أو قالت أمي عنه. داهمني صوت طرْقٍ خفيف على الباب فانتفضت. كدت أن أطلق صرخة عفوية لولا تحذيرات حسام الذي طلب مني الْتزام الصمت، والاختباء فورًا داخل الغرفة المجاورة.

هرعت إلى الغرفة، وتواريت خلف بابها وتركته مواربًا لأسترِقَ النظر من خلال الشق..

ذهب حسام وتساءل:

- من القادم؟

فجاءه صوت يافع قائلًا:

- أنا عوض ابن الشيخ سليمان.. افتح يا بشمهندس.

تردد حسام ومضى يفكر، ثم فتح الباب.. فرأيت فتى ضئيلًا في الرابعة عشر من العمر أو يزيد، يحمل على يُسراه صينية خشبية حملت فطيرًا وعسلًا وجبنة وحلوى.

صافحه حسام، وتناول الصينية منه متسائلًا:

- ما هذا؟

اتصل عم عزام بأبي، وطلب منا أن نأتي إليك بالعشاء.

ابتسم حسام وقال له بامتنان:

- شكرًا لك ولشيخنا الكبير.

قال الفتى:

- لا شكر على واجب.. أي خدمات أخرى يابشمهندس.

- شكرًا لك يا ابن الكرم والأصول.

صافحه الفتى مجددًا، ثم ذهب. ووقف حسام من وراء النافذة يراقب الفتى وهو يركض نحو بيته حتى غيبه الضباب. أشار لي بالخروج، وقال:

- من الأفضل ألَّا يعلم أحد بوجودك هنا.. ليس الأمر يتعلق بسلامتك وحسب، بل لأن الأرياف لا تقبل بوجود فتاة مثلك في بيت شاب أعزب أيًّا كانت الظروف.

أومأت برأسي في وجوم، وتوجهت نحو الحمام القريب. سكبت الماء على وجهي، ووقفت أحدق إلى نفسي في المرآة. رأيت شحوب وجهي، وقد ذهب الهدوء والتماسك مع أدراج الرياح، وحل محلهما القلق والعجز. وتمنيت لو كان معي بعض مساحيق التجميل، فأعيد لبشرتي ولو حيوية زائفة.

يا لغبائي ما هذا الذي أفكر فيه!!

مشطت شعري بأصابع يدي سريعًا وغسلت وجهي ويدي بصابون أبيض معطر، ثم خرجت.

على طاولة الطعام، راح حسام يأكل بنهم شديد. ظننت أنه جائع في البداية حتى أدركت أنه يحاول جاهدًا أن يبرهن لي على خلو الطعام من أي شكوك.. إذْ كنت ساهمة وبالكاد تناولت ما يسد رمقي. كنت أفكر في علاقة الماضي بالحاضر، وعلاقة أمي بحسام، وعلاقتي أنا بكل هذا.

وكيف سينتهي الأمر على حد قول حسام.

وعندما انتبهت نظرت إلي حسام، وفوجئت به ينظر نحوي بافتتان عاشق! نظرة ثابتة توحي بالكثير، أشبه بنظرة أحمد مظهر لفاتن حمامة وقت سماع صوت الكروان.

ارتبكت، وزاغت عيناي قليلًا قبل أن تستقر على سكينة في منتصف الطاولة. الدفاع عن النفس حق مشروع. قلت لنفسي، وانتظرت منه الهجوم.

ولكن عوضًا عن ذلك سمعته يقول بنبرة مثقلة حالمة:

أنتِ تشبهينها كثيرًا.

أدركت على الفور مَن يقصد، فتنهدت في ارتياح..

فكل من أعرفه تقريبًا قال لي أنني أشبهها.

أُشبه أمي.

كلانا قصير القامة وضئيل الحجم، ولعيني وميض عينيها الذهبي وبشرة بلون البرونز.. غير أنها بشعر قصير وأنف طويل، وأنا لي شعر أملس طويل يصل إلى منتصف الظهر، وأنف دقيق.

ابتسمت له وقلت لأغير مسار الحوار:

- أنتَ سائق بارع، كيف تعلمت القيادة بهذا الشكل؟

- أنا ميكانيكي سيارات، وطالب في سنة ثانية كلية زراعة.

اندهشت لأنه بدا لي أكبر من طالب في السنة الثانية، وسألته:

- طالب جامعي! كم عمرك بالتحديد؟

- ستة وعشرون عامًا.. الأمر معقد بعض الشيء.

بدا عليه الانزعاج والضيق القليل، فعاجلته لأغير الموضوع:

- حسنًا، وما علاقة الميكانيكي بالطالب الزراعي.

- الميكانيكي يتكفل بمصاريف الطالب، ويحقق جزءًا من أحلامه.

أشار إلى البيت بحركة دائرية بذراعيه.

ففهمت مايعنيه، وهززت رأسي بابتسامة بادلني إياها بواحدة مماثلة. ولأول مرة أراه يبتسم.. بدا لي شخصًا هادئًا رقيقًا رغم ما تبديه عينيه من حدة ووقار.. التجاعيد القليلة حول عينيه، وبين حاجبيه منحته مظهرًا أكبر من عمره الحقيقي، وكأنّ خبرته في الحياة تركت علامتها عليه، واستوطنت. أحسست بقلبي يخفق بشيء لم أتمكن من تحديده، ورفضت عيوني الابتعاد عن ملامحه وعن عيونه، كما لو كانت تحفظ في ذاكرتي تلك اللحظة إلى الأبد. أخيرًا نطق لساني وانتشلني من أحاسيسي:

- كيف علمت بمكاني في مستشفى مدينة نصر؟

صمت قليلًا، ثم قال:

- بعد انقطاع الاتصال، هرعت إلى حيث قلت لي على الهاتف عند مسجد السلام، وهناك أخبرني الأهالي أنّ رجلًا داكنَ البشرة حاول اختطافك، لكن سيدة رأتكما من النافذة فصرخت وهيجت المارة، تركك الرجل ممددة على الأرض فى حالة إغماء، وفرّ هاربًا. فقام الأهالي بنقلك إلى مستشفى مدينة نصر، وذهبتُ إلى هناك وانتظرتك بالخارج.

- وكيف تعرفت عليّ؟

تأملني لبرهة، ثم أعقب:

- خمنت من الشبة بينك وبين زهرة.. ومع اندفاع بعض الرجال وراءك تأكدت من حدسي.

طاف بذهني سريعًا ما حدث داخل المستشفى وخارجها، فسَرَتْ في جسدي قشعريرة طفيفة غير واضحة، وأردفت:

- شكرًا على مساعدتك لي هناك، ولأنك معي الآن.

- سعيد جدًّا وممتن، لأنني معك الآن.

رفعت عيني وتلاقت نظراتنا لوهلة، وخيل لي أن تلك الثواني القليلة هي أطول ثوان عشتها في حياتي. أحسست بالدماء تندفع إلى وجنتي وقلبي يضطرب، ولكيْ لا تفضحني حُمرة الخجل، وينكشف المستور. قلت له:

- تصبح على خير.

- ولكِ كل خير.

نهضت واقفة، ودخلت من فوري إلى الغرفة، وأغلقت الباب خلفي بالمفتاح.

"ماذا يحدث لك!".

خلعت حذائي الرياضي والمعطف، ورميت نفسي على السرير، وقد خامرني شعور بالتعب والحيرة. كانت الغرفة رحبة ودافئة مطلية بلون "الكريما"، ولها شباك واحد مرتفع وسهل الفتح، يطل على الطريق مباشرة كما قال حسام من قبل.

"ماذا حدث لك!".

تساءلت مجددًا، وأنا أحكم سحب اللحاف عليَّ بَعد أن شعرت بالبرد يتغلغل داخل جسدي فيما راح قلبي يخفق بجنون، وأطرافي ترتجف..

في إحدى روايات ستيفان زفايغ حكى لنا الكاتب عن قصة امرأة في الأربعين من العمر وقعت في غرام شاب في مقتبل العشرين، وذلك في خلال ساعات..

قالت البطلة أنها شعرت بخيبة أمل كبيرة لأنه رحل طائعًا، ولم يحاول التشبث بها، أو البقاء إلى جانبها.. وأنه لو فعل، لذهبت معه إلى أقاصي العالم، وهربت معه، غير عابئة بأقاويل الناس، ولا بضميرها، وستضحي من أجله بكل شيء.. فقط لو قال كلمة واحدة.

سخرت كثيرًا من تلك الرواية وقتها.. وتساءلت كيف يمكن للمرء أن يحب شخصًا مجهولًا عنه في خلال ساعات أو حتى أسابيع.

كنت في الحب مِن النظرة الأولى أعيش ما بين مُصدِّق ومُكذِّب. على عكس هيام وجويرية. كانت هيام تؤمن بوجوده وتقول إن أغلبنا يبحث عن الحب ويناجيه مع أن أجمل قصص الحب هي تلك التي بدأت صدفة. وجويرية وعلى النقيض كانت ترى أن المال يصنع الحب لكن الحب وحده سيقتلك جوعًا أو قهرًا.

لكني كنت مؤمنة أن الحب هو الشيء الوحيد الذي يجعلك ترى الأشياء مختلفة، والأحزان مختلفة، والمواقف مختلفة، والنظرات مختلفة حتى نفسك ستراها على نحو مختلف. ولم يحدث أن صادفت يومًا ما يشعرني بأي شيء مختلف.. على الأقل قبل أن أصادف حسام.

ربما شعرت بخفقان الهوى من قبل ولكن مجرد إعجاب صامت وليس بهذه الدرجة من العنفوان والتوق. كنت دومًا أميل إلى الانزواء والدراسة في الجامعة، وكنت أخشى جذب الأنظار إلى نفسي، ولا أحب مصاحبة الغرباء أو التقرب إليهم، خشية الوقوع فيما لا يحمد عقباه، وربما كان هذا هو السبب وراء الشلل العاطفي الكامن في روحي وقلبي طيلة تلك السنوات.

ربما!!

كانت أفكاري تتزاحم وضربات قلبي تؤرقني، وبلا مقدمات مرّ بخاطري ذكرى قديمة قابعة في صندوق الماضي واستحوذت على فكري.. إلا أن جسدي كان مُنهكًا للغاية.. ويبدو أن الإرهاق البدني أقوى وأعنف من الإرهاق العقلي لأني أغمضت عينيَّ وتركت النوم يأخذني من دون أن أتخذ وضعية مريحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[10]
سيدة القصر

بنها - 2016

في مساء يوم لا يتكرر كثيرًا عندما كنا نشاهد أنا وأمي على التلفاز فيلم "سيدة القصر" بطولة فاتن حمامة وعمر الشريف. عن قصة فتاة يتيمة وفقيرة، تلتقي صدفة بشاب ثرِي، فيعجب بها ويحاول التودد إليها بكل الطرق، وحينما تفشل مخططاته يقرر الزواج منها. يحاول رِفقاء السوء طوال أحداث الفيلم التفرقة بينهما إلا أن يعرف الزوج في النهاية قيمة زوجته وقيمة حبه لها.

قالت أمي على حين غِرّة:

- تعالي هنا حبيبتي.

وفتحت ذراعيها على مصراعيهما، وأشارت لي بالاقتراب. ترددت، ثم شرعت في تنفيذ ما طلبته وملت بجسدي في حضنها الدافئ وانسابت لأنفي رائحة عطرها الناعم. وعلى عكس ما توقعت وجدت نفسي مشتاقة إليها شوقًا عظيمًا. فعلى الرغم من كوننا نعيش تحت سقف بيت واحد ونجتمع على طاولة الطعام لثلاثة وجبات يوميًا، كان كلٌ واحد منّا بعيدًا عن الآخر، مستغرقًا في التفكير بحياته الخاصة. كنزلاء فندق مضطرين للتعامل وتبادل التحية.

استأنفت زهرة:

- هذا الفيلم ذكرّني بقصة حقيقية حدثت قبل سنوات اسمحي لي أن أرويها لك. في يوم من الأيام، كان ثمّة طفلة تحب الموسيقى والسينما، وكانت فقيرة يتيمة تعيش تحت كنف جدها العجوز القاسي ثقيل السمع إلى درجة تقود للجنون، لكنها كانت من النمط المتعالي الذي لا يترك فقره يقيد أحلامه. كبرت الطفلة، وصارت شابة جميلة تسر أعين الناظرين، وتهيج غضب فتيان الحارة لعزوفها عن الحب أو الارتباط بأي واحد منهم. وذات يوم حصلت على عمل شاق في أحد المصانع اليدوية، الذي يملكه شاب مهذب وسيم لايعرف الفرق بين الطبقات، وسرعان ما عرف قلبيهما الحب، وذاقوا من حلاوة الحياة وتفتحت أمامهما بكل أزهارها رغم ما عانوه من تدخلات خارجية ومؤامرات باءت بالفشل.

صمتت زهرة، وتنهدت في أسى.

فقلت من فوري:

- وماذا حدث لهما بعد ذلك؟ أكملي يا أمي.

تزوجا في حفل عائلي بسيط، وبعد سنوات توفى الزوج في حادث سير وعاشت هي على ذكراه.

مات!

هتفت بحزن، واعتدلت في جلستي، ثم أردفت بنبرة متأثرة:

- إنها قصة جميلة لكن حزينة.. وأنا تعجبني نهاية هذا الفيلم أكثر لأنها نهاية سعيدة، وأنا أحب النهايات السعيدة.

قالت زهرة بمرارة:

- ليت النهايات السعيدة التي تحدث في الأفلام تحدث معنا في الواقع.

ابتسمت مؤيدة، وأعدت جسدي إلى حضنها الدافئ مرة أخرى، وتابعنا معًا كيف انتصر الشر على الخير في البداية، ثم انقلبت الأحداث وانتصر الخير والحب في النهاية.

وبعد مرور ثوانٍ قليلة، انتبهت إلى دموع أمي المنسابة في صمت على خدها الناعم الرقيق.

- ما بك يا أمي؟

قالت وهي تحاول أن تبدو عادية:

- لا شيء حبيبتي، تأثرت بالفيلم.. فأنا مثلك أحب النهايات السعيدة.. هيّا.. الوقت تأخّر كثيرًا، وحان وقت النوم.

في وقت لاحق من حياتي، سأدرك أنها كانت تروي قصتها مع أبي، وأن النهايات السعيدة حقًّا لا تخرج إلا من خيال كاتب أو أعين مخرج سينمائي يُلبي طلب الجماهير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[11]

حسام

بعد أن دَخلت نسرين الغرفة، وأدارت المفتاح في القفل من الداخل.. عمّ السكون والوحدة.. وسنحت لي الفرصة أخيرًا لأداء ما فاتني من صلاة اليوم.. مجمعة، الله غفور رحيم.

أطلت السجود في كل ركعة ولسان قلبي يطلب من ربي الغفران والقبول والنجاة والسلامة لنسرين فقط، ونسيت نفسي تمامًا. وفي الركعة الأخيرة، ورأسي قريبة من الأرض تذكرت ما حدث في ليلة أمس ففاضت مني دموع الحزن والألم، وتضرعت إلى الله ألّا يحمّلني مالا طاقة لي به.

انتهيت من صلاتي حامدًا، وقمت وأنا أردد الشهادة ولساني لا يكف عن ذكر الله! فلقد كان لوجود نسرين في غرفتي، نائمة على فراشي، يثير بي أحاسيس مختلطة بين السعادة والرضا والفضول والرغبة.

بخطوات بطيئة وثقيلة وصلت إلى الكنبة وارتميت عليها بوهن، وانتبهت أنني عاجز عن التحكم في ارتعاشة قدمي اليسرى، وأن جسدي كله يرتعد، فقلت في سِرِّي:

"أخيرًا الْتقينا، وتحدثنا، وجلسنا معًا على أرض الواقع".

في الماضي البعيد، كنت أضمر لنسرين كل مشاعر الكُره والغضب من دون أن أراها. أتخيلها طفلة نائمة على فراش دافئ بين ذراعي زهرة فيقتلني الحقد والحسرة وأنام باكيًا.. لكن بعد فترة بتُّ أراها نائمة في فستان وردي بشريطة من الساتان على الخصر. أما شعرها الأملس الطويل، فكان مفروشًا فوق الوسادة كجميلات السينما، فلم تعد رؤيتها تؤلمني، ولم أعد أبكي.

التفكير في نسرين كان أشبه بطائرة تحلق بعيدًا في السماء، تمر أمام عينيك بلا صوت، فيختلج قلبك لها، وتتمنى لو كنت قائدها أو حتى واحد من ركابها لتحلق معها في سماء عالم آخر، وتعيش حياة أخرى. هكذا كانت نسرين بالنسبة لي: طائرة بعيدة، ومستحيلة المنال.

وذات يوم قبل سنوات قليلة، وبعد أن كنت في كل مرة أبتلع لساني وأكبح فضولي، تجرأت وطلبت من زهرة أن أرى صورة لنسرين.. ترددت زهرة قليلًا، ثم وافقت. ورأيتها.. فقط لثوانٍ معدودة.. لكنها كانت كافية لتحفر نفسها في رأسي وتملأ أحلامي لسنوات، وكثيرًا ماكنت أستحضر صورتها في خيالي، وأفضفض معها في كل شيء كالمجانين، فكانت هي رفيقي الدائم في الفرح والحزن والنوم واليقظة والتعب والراحة، وأدركت في نهاية المطاف إني غارق في العشق لا محال.

في الصورة كانت نسرين في السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية.. لكنها بدت أكبر قليلًا من سنِّها، وأجمل بكثير مما تخيّلت.. شعرها الطويل معقود كذيل حصان خلف رأسها عدا خصلة ناعمة تميل على خدها الأيمن، وفي ملامحها رقة وعذوبة كنسمة صباح يوم ربيعي هادئ، أما شفتيها فكانتا بلون الكرز تنفرجان على ابتسامة عريضة تشي بسعادة حقيقية نابعة من القلب.. ورغم هذا كان ثمة مسحة

حزن في عينيها.. حزن عميق عذبني بالتساؤل وغمرني بالفضول لفترة طويلة إلى أن عرفت سببه قبل بضعة أيام.

وليتني ما عرفت، وليت نسرين لا تعرف ما عرفت..

ولكن عليها أن تفعل.. عليها أن تواجه الماضي وتفتح كل أبوابه ونوافذه...

يا الله، يا رحمن، يا رحيم، كن في عون نسرين.

واجعل قلبها ملكًا لي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"من يريد الليل لا يتجنب القمر،

ومن يرغب في الورد لا يخشى أشواكه،

ومن يسعى إلى الحب لا يهرب من ذاته".

جلال الدين الرومي

[12]
نسرين

شبرا بلولة - الغربية - 2025

نهضت مذعورة.

تلفت حولي في ارتعاب، وكل عضلة في جسدي تنتفض، وكأنني لم أخرج بعد من الحلم.

رأيت نفسي في صحراء شاسعة، في ليلة سوداء لا قمر فيها ولا نجوم. كان الطقس حارًّا، حارًّا جدًّا. وعلى مرمى البصر، رأيت حفرة تخرج منها ألسنة اللهب كبركان حي تبدو للناظر كبابٍ مفتوح من أبواب جهنم.. وتساءلت:

- أين أنا؟ وكيف جئت إلى هنا؟ ولكن بدلًا من أن أتلقى جوابًا، دوّى صوت مرعب من السماء، وأصابني الفزع حين ارتفعت ألسنة اللهب وبدأت الحفرة في التوسع في الطريق ناحيتي. تراجعت إلى الخلف وأطلقت ساقي للريح، صرخت من أعماقي طلبًا للنجدة فخرج الصوت مكتومًا ضائعًا. وإذْ فجأة برياح غاشمة تهب من الاتجاه المعاكس، وتسحبني بقوة نحو الحفرة. رحت أتصارع معها في معركة خاسرة حتى داهمني صوت آمر يتحدث إليّ.. كان صوت أمي.

قالت فجأة وبوضوح تمامًا.. وآخر كلماتها لاتزال تدوي في أذني "استيقظي".

كان حلمًا. مجرد حلم.

فكرت في نفسي، وأسندت رأسي إلى ظهر السرير، بينما جسدي مرهق وأنفاسي مضطربة. لحظات وبدأت ضربات قلبي تهدأ حين استشعرت الظلام بالخارج لايزال حاضرًا، والسكون يخيّم على القرية.

ولأن النوم بات مستحيلًا.. انتعلت حذائي، ومررت أصابعي على شعري لتسويته، وخرجت.

وجدت حسام نائمًا على الأريكة منكمشًا على نفسه، وذراعه تحت رأسه.. وكان لايزال يرتدي حذاءه وكأنه على استعداد للهرب فجأة.

داهمني مزيج غريب من السعادة والشفقة وأنا أراه على هذا الوضع، ولُمت نفسي كثيرًا لأنني لم أفكر في غطاءٍ له.. فهرعت إلى الغرفة مرة أخرى، وعدت حاملة اللحاف الثقيل الذي كنت أتدثر به قبل قليل. وما كاد أن يلمس الغطاء جسد حسام حتى انتفض المسكين فزعًا وقبضته مطوية في حالة هجوم.

- أنا نسرين.. اهدأ. هتفت.

عندما أدرك حسام أن المعتدي عليه ليس إلا أنا، الفتاة الضئيلة ذات الذاكرة المضعضعة، هدأت قسمات وجهه، وابتسم.

قلت له برقة:

- أعتذر على الإزعاج.. أردت فقط أن...

فقاطعني مبتهجًا:

- لا يهم.. شكرًا على اهتمامك.

جالت عيناه في الصالة حتى استقرت على الساعة المعلقة، وقال:

- الفجر أذَّنَ، والشمس ستشرق قريبًا.. لولاك كنت سأفوت صلاة الفجر.. شكرًا لكِ.

نهض واقفًا في طريقه إلى الحمام ليتوضأ، لكنه توقف في منتصف الطريق والْتفت إليّ:

- نسرين.. هل صليت الفجر؟

باغتني سؤاله.. فتلعثمت.. ثم هززت رأسي بالنفي.

- هل تودين الصلاة معي؟ أقصد خلفي.. فثواب صلاة الجماعة كما تعرفين يكون أفضل.

هززت رأسي من جديد وتوجهت قبله إلى الحمام بخطى ثابتة.

لم أُصلِّ في حياتي كثيرًا، بل لم أكن أفكر فيها بطريقة روحانية أو إلزامية من الأساس، لكن في تلك اللحظة، والخطر يحدق بي من كل اتجاه وجدت في قلبي سكينة وراحة لم أعهدها منذ زمن بعيد، واستشعرت أنني حقًّا بين يدي الله فاقشعرّ بدني، واعتدلت في وقفتي خلف ظهر حسام ببضع خطوات.

تحت الضوء الخافت رفع حسام الأذان لقيام الصلاة.. وبصوت خاشع رخيم كانت الكلمات تخرج منه كنغمة عذبة تريح النفس وتهدأ الأعصاب، وحين انتهى بـ"لا إله إلا الله" الْتفت إلى الوراء راضيًا عن وجودي، ثم شرع في الصلاة وأطال في الوقوف والسجود، وأكثرتُ أنا من الدعاء والتمني بعبارات بسيطة ساذجة لكنها نابعة من القلب، وهذا عند الله أقرب وأفضل..

بعد التسليم، الْتفت إليّ مرة أخرى ولمحت لمعة في عينيه قبل أن يقول باسمًا:

- حرمًا.

فرددت بتلقائية:

- جمعًا إن شاء الله.

فاتسعت ابتسامته أكثر، وأشرقت الشمس بعدها..

لو أن أحدهم تكهن بالمستقبل وقال لي إنني سأواجه الحب والموت في آنٍ واحدٍ لسخرت منه واتهمته بالجنون.

في الماضي القريب، كنت أرى الحب صعب المنال لا يحدث إلا لمامًا، أما الموت فكنت لا أفكر فيه مطلقًا وأراه بعيدًا.. بعيد للغاية. واليوم، وأنا أمام حلبة صراع بين الأمرين.. وجدت نفسي أتساءل أيًّا منهما سينتصر على الآخر ويحلق بروحي عاليًا.

أتمنى أن يكون الحب..

أتمنى حقًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تواريت خلف النافذة، ورحت أتابع القرية وهي تستيقظ على صوت صراخ طفل من مكان ما، ونهيق حمار، وصياح الديكة وسط هالة من الضباب المحمر.. معظم البيوت صغيرة الحجم من طابقين أو ثلاثة جدرانها من القرميد وسقفها من القرميد ومتباعدة عن بعضها، يحيط بها الأشجار، والمزارع من كل جانب.. بدأت النساء تفتح النوافذ على مصراعيها، والرجال يتمطون في طريقهم إلى عملهم، والضباب ينقشع رويدًا ليكشف عن المساحات الخضراء الممتدة إلى آخر المدى.. ألوان زاهية حمراء وبيضاء وصفراء تفوح منها الروائح العطرية التي داهمتني بالأمس، فبدا لي كل ما أراه كقطعة من الجنة على الأرض، وتمنيت لو كان معي أدوات الرسم لتخليد هذا المشهد البديع في لوحة فنية ثمينة.

ربما في يوم آخر، إن كان ثمة يوم آخر.

خرج حسام قبل قليل، وعاد ومعه أكياس صغيرة فيها أشياء من عطار قريب من البيت، وانهمك في إعداد الإفطار بوجه مشرقٍ بَاسمٍ:

- قابلني الشيخ سليمان في الطريق، وسألني إن كان معي أحد في البيت.

قاطعته:

- وهل علم بوجودي.

- لا، لا.. كان.. كان مجرد سؤال. سكت لحظات ثم استرسل:

- الشيخ سليمان رجل طيب وخدوم، لكنه يحب الثرثرة ومعرفة كل ما يدور حول بيته وخصوصًا ما يدور في بيته القديم.. فهو المالك السابق لهذا البيت. شاي أم قهوة؟

- ها.. آه شاي.

تحرجت من جمودي، وعرضت عليه المساعدة فلم يعترض. قطعت شرائح الخيار والجبن، ورصصت الأطباق على المائدة، وجلسنا متقابلين كليلة أمس.. لكن بشهية مفتوحة وقلب مرتاح.

وبينما كنت أضع السكر في فنجان حسام، وأقلب بالمعلقة هبت نسائم لطيفة حركت الستائر، وقطعت بيننا الصمت، ومن دون مقدمات أو تلميح صريح، حكى حسام عن ازدحام القرية وقت الظهيرة، وسكونها بعد الغروب، وعن الشيخ سليمان مؤذن القرية وشيخها الجليل، وعن خطته المستقبلية في هذا البيت:

- سأبني طابقًا ثانيًا مخصصًا للنوم، وهذا الدور سيكون بمثابة غرفة استقبال ومطبخ فقط. ثم أضاف أنه سيشتري خمسة أفدنة بعد التخرج من الجامعة لزراعة زهور الياسمين والقرنفل والبنفسج مضيفًا أنّ الفلاحين بالقرية في موسم الحصاد أو موسم جمع زهرة الحب يقومون بجمع الزهور من المساء والساعات الأولى من الصباح حتى ظهر اليوم التالي ليتجهوا بها إلى المصانع لتصنيعها وتصديرها إلى الخارج كمادة خام، ولكنه يسعى في المستقبل القريب لبناء مصنع يقوم بتحويل المادة الخام إلى عطور وزيوت فاخرة يصدرها إلى العالم بآلاف الدولارات.

- فكرة مدهشة.

ابتسم، وقال:

- حلمت يومًا أن أكون مهندسَ ميكانيكا.. ولما كبرت وبات بوسعي الاختيار، اخترت كلية الزراعة لأعيش هنا، وسط الهدوء والطبيعة والروائح الطيبة والناس البسيطة.

أيّدت كلامه بقولي:

- معك حق، هنا الجمال حقيقي، ولا يقدر قيمته إلا من عاش محرومًا منه.

قاطعني حسام:

- صوت سيارة، عزام ومؤنس وصلوا.

خرج حسام لملاقاتهم، واختلستُ النظر من بين ثنايا الستارة، فرأيت عزام يخرج من مقعد السائق لسيارة فضية قديمة الصنع، ومعه شاب ممتلئ بالجسم، ووجهه مخضب بالحمرة، يتحرك بمزيج من الثقة والسماجة فخمنت أنه مؤنس، صديقهم الطالب في كلية الطب، ومن حولهم كان الأطفال يلعبون، ويصخبون كعادتهم تحت قرص الشمس الرائق فوق حقول ومزارع لا نهاية لها، لم يكن مظهر الهدوء والسكينة في القرى هو ما يأسر القلوب بل كانت الروح والبساطة.

مددت يدي بالسلام إلى مؤنس، ومن بعده عزام، ونظرت إليهم في شبه ابتسامة، وأنا أتساءل في نفسي إن كان مؤنس غريبَ الأطوار هذا وعزام المثير للذعر موثوق فيهم حقًّا.. أم أن حسام في الأصل مغفل كبير يرى الكل أوفياء!

جلسنا نحن الثلاثة -أنا ومؤنس وحسام- على الطاولة، وأمامنا وضع مؤنس الحقيبة ولاب توب، بينما ابتعد عزام، وجلس على الكرسي البعيد راسمًا على وجهه العبوس الذي يصاحب الاستغراق في التفكير. سمعت حسام يسأل مؤنس مستفسرًا عمّا كان بداخل الحقيبة، متمنيًا كل خير.

فتح مؤنس اللاب توب، وقال بنبرة عملية كمَنْ يلقي بيانًا:

- بخصوص ديفيد دايور، تأكد عزام بنفسه أنه توفى مساء الثلاثاء دون أي ذِكر عن سبب الوفاة، وتمّ نقل جثمانه لمسقط رأسه.

انزعج حسام من خبر موتِه، وبدا أنه كان يعلّق عليه آمالًا كثيرًا، وكذلك فعلت أنا.

استأنف مؤنس:

- الأوراق الطبية، والمستندات التي كانت في الحقيبة تقول إن الأمر أخطر بكثير ممّا توقعت.

صمتَ قليلًا، ثم تابع:

- ثلاث دول من أكبر، وأقوى دول العالم أقاموا حلفًا ثلاثيًّا في غاية السرية بعدما قام أحد الباحثين باختراع منشط كيماوي يزيد من كمية المعادن، والأنسجة المكونة للعظم، ومن ثم زيادة كثافة العظم، وزيادة صلابته إلى حد جعله جدارًا منيعًا أمام الطلقات النارية، والطعنات الحادة وأطلق عليه اسم (التكوين الصخري للعظام).

قلت مُرددة:

- التكوين الصخري للعظام.

هزّ رأسه، وتابع:

- نعم التكوين الصخري للعظام.. وعلى الرغم من نجاح المصل على الحيوانات نجاحًا منقطعَ النظير إلّا أنه حقق فشلًا ذريعًا على البشر، ورجّح الباحث أنّ الفشل يعود إلى الظروف المناخية لدول التجارب.. إذْ كانت تقوم على ممن يعانون من المجاعات، والحروب، والأمراض الوبائية فضلًا عن المساجين، والمعتقلين غير المؤهلين ذهنيًّا للتكيف مع المصل، وأكّد الباحث أنّ المصل لن يعمل إلا على الأصحّاء العاقلين، الذين يعيشون حياة طبيعية لا يعوقها أي أزمات أو اضطرابات نفسية، وأنّ المصل لا يعمل إلا على عظام الساقين والذراعين والقفص الصدري.. أما غير ذلك من جمجمة، وسلسلة ظهر فكل النتائج سواء على الحيوان أو الإنسان انتهت إما بالشلل أو السكتة الدماغية أو الموت السريع.

عقّب حسام قائلًا:

- لكن هذا مستحيل لأنه لا أحد عاقل سيوافق على الدخول بجسده في تجارب علمية بهذه الخطورة.

فقال مؤنس بأسف:

- ولهذا السبب لجأ المشروع لوسائل الخداع والكذب، وبدأ في الإعداد لمرحلة جديدة من التجارب تحت مسمى مشروع علمي يفيد البيئة. لتكن البداية في شمال دول أفريقيا، وبالتحديد في مصر، وذاك بسبب المناخ العام، والجو الريفي، وسهولة الحصول على متطوعين مقابل بضعة دولارات.

صمتَ قليلًا، وراح يمرر سبابته على ذقنه كأنه نادم على جملته الأخيرة، ثم أضاف:

- نسرين وزهرة كانتا أولى التجارب في المرحلة الجديدة، وقد حدث هذا منذ حوالي..

- سبعة عشر عامًا. قاطعته بذهول، فتبادل مع حسام النظرات، وأردف:

- نعم سبعة عشر عامًا، وانتقلتما بعدها للعيش في بنها بالقليوبية لأنها قريبة من القاهرة وفقًا لاتفاق مسبق مع زهرة، مع ضرورة القيام بفحص شهري تحت إشراف الدكتور ديفيد دايور ليتأكد من

حالتكما الصحية في عيادته الخاصة بالقاهرة، ومع تطور الحالة ونجاح التجربة نجاحًا باهرًا، وإن كانت عظام نسرين تتفاعل مع المصل بشكل أكبر بكثير من عظام زهرة.. لكن في كل الأحوال كانت النتائج مُرضية، ومُبشرة مع عظامٍ صلبة تزداد قوة، وأبدانٍ سليمة قليلًا ما تمرض.

قاطعه حسام قائلًا:

- إن كان جيد كذلك فكيف تدهور الأمر.

قال مؤنس في أسى:

- بسبب مرض هشاشة العظام.. فبعد أن بلغت زهرة سن الأربعين أظهرت الفحوصات وجود خدوش غائرة في عظام زهرة، وكانت تزداد عمقًا، وألمًا لها مع الوقت. كان الأمر أشبه بالجليد الذي قد يصل إلى أعلى درجة من القوة والصلابة ثم يبدأ بالذوبان ويتفتت.. فالعظام الطبيعية تكون صلبة تشبه العاج، لكن عظام زهرة في الفحص النهائي كانت أشبه بقطعة طينية جافة سوداء مشققة، وخمن ديفيد أن حياتها وحياة كل مَنْ تعرّض للتجربة لن تستمر أكثر من بضعة أشهر بعد سنّ الخمسين إن لم تكن أيامًا.

قلت له محتدة:

- تقصد أنه أنا وأمي سنموت...

هنا داهمتني نوبة من القيء..

هرعت إلى الحمام، وركعت على ركبتي، أفرغ معدتي في المرحاض.

الخيانة قاسية.. خصوصًا ممّن لم نتوقع منهم الخيانة..

هزت الرعشة كل كياني، وسيّطر عليّ الألم، والغضب، وخيبة الأمل، والجنون، واستولى الخوف على نفسي.. قادتني أمي بابتسامة عريضة وحضن دافئ إلى حتفي لتحصل هي على حياة راغدة منزهة ولو لعمر قصير..

إنها الخيانة بعينها،

عشت طويلًا أتمنى لو أسألها ما الذي حدث في يوم المصنع، وبعد أن عرفت، تمنيت لو لم أعرف..

أحيانًا وقوع البلاء يكون أسوء بكثير من انتظاره.

بتُّ أخيرًا، أعرف خيانتها، وسبب تصرفاتها الغامضة معي، وتسلطها غير المفهوم في كل ما يتعلق بِحُريتي واستقلالي عنها.. كنت مصدر دخلها.

غمرتني الفجيعة واستحوذت على، وذهب هدوئي كاملًا مع أدراج الرياح.. دقائق.. وخرجت من الحمام أستشيط غضبًا ولا ألوي على شيء غير أن أفرغ ما في جعبتي من فوران في الثلاثة، عسى أن أهدأ وأرتاح، لكن خاب أملي وتكدرت لما رأيت حسام وحده يجوب الغرفة إيابًا وذهابًا في انتظاري.. أحسست بغضبي يتراجع، ونبضات قلبي تهدأ دون إرادة منّي.

ومع ذلك قلت بصوت صارم، وأنا أزدرء العقدة التي بلغت حلقومي:

- حسام هل كنت تعلم بكل هذا؟

- فقط جزء منه.. أخبرتني زهرة ببعض التفاصيل قبل أيام..

هتفت، والحسرة تقرض قلبي:

- كيف لها أن تفعل بي هذا وتخفي عني الأمر وأنا ابنتها الوحيدة؟

فقال بأسف:

- أرادت زهرة أن تخبرك منذ زمن، لكن لم تواتها الشجاعة قطّ.

قلت بسخرية:

- لم تواتها الشجاعة لسبعة عشر عامًا.. ها.. كذبت عليك.. هي لم تخبرني بالحقيقة لكي لا أفضح جريمتها وأدمر الحياة التي ضحت بحياتي وحياتها من أجلها.

قال حسام متهكمًا:

- لم توافق على المشروع من أجل حياة أفضل لنفسها، هي وافقت عليه من أجلك أنتِ.

قلت بحدة وأنا أقاوم أنفاسي المتهدجة:

- كيف تصدق هذا الكذب؟

دنا مني، وقال بإشفاق:

- اسمعيني أرجوكِ.. بعد وفاة والدك، واستيلاء عمك على كل الميراث كنتما فعليًّا بلا مأوى أو نقود أو أهل أو أي شيء.. وقتها لجأت زهرة إلى أصدقاء والدك المقربين، لكن مع الأسف، الكل اعتقد أنها ستكون لقمة سائغة على فراشه وكأن الصداقة والنخوة ماتت مع موت والدك.

ابتلع ريقه، وأكمل:

- وقتها شعرت زهرة بالذعر، وأنتِ نائمة في أحضانها على أحد الأرصفة، جائعة، ومريضة، ولا تكفين عن التذمر وطلب النوم على فراشك الوثير.. فلما اقتربت منها امرأة شابة، ومدت يد المساعدة في مقابل الدخول في هذا المشروع العلمي لم تجد مانعًا، خصوصًا أنهم أقنعوها بالأمان والصحة والرخاء لك ولها، وأن المصل سيمنحكما عمرًا أطول وجسدًا أقوى، كانت في حيرة أمام خيارَين إما البقاء في الشارع بين اللصوص، وعديمي الضمير والرحمة وإما الدخول في هذا المشروع.

قاطعته بحدة وعنف:

- فاختارت المشروع.. اختارت المجازفة بحياتي وكأني ليس لي رأي فيها.. كان بإمكانها كأي أُمّ أن تنحت في الصخر، أن تتركني أمام إي ملجأ لحين تيسير أمورها، لكنها اختارت الأسهل والأفضل لها وحدها.. أنانية هي ولا تستحق لقب أمّ.

ردّ حسام بحدة مماثلة:

- هي أعظم أُمّ في العالم.

- وكيف لك أن تعرف هذا؟ هي حتى ليست أمك.

صرخ ثائرًا:

- بلى.. هي أمي.

وقعت الواقعة على رأسي دون هوادة.. "أمي" أيمكن أن يكون حسام الذي خفق قلبي له، واشتهى جسدي جسده هو أخي؟! أيمكن لأمي أن ترتكب بحقي جرمًا آخر كهذا!

أحسست بدوران حادٍّ وضيق في التنفس.. مشيت مترنحة إلى أقرب كرسي وتهاويت عليه، فيما كان حسام يتحرك ببطء نحو النافذة، فتح الستائر والشيش، وتطلع إلى الأفق البعيد، وإلى السماء، وأسراب الطيور التي تحلق عاليًا، أمسك برهة عن الكلام، وكأنه ينبش في ذاكرته البعيدة، وبعد لحظات، بدأ يحكي...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[13]

حسام

لا أعرف من أين جئت، ولا كيف كانت حياتي قبل الشارع!

ربما لم يكن ثمة حياة قبله.. ربما كنت ابن زواني، وُلِد بين أكوام النفايات لتكون له بيتًا وأهلًا.

كل ما أذكره عن طفولتي هو الفاقة، والذل، والجوع، والخوف، والحرمان من كل شيء، طفل مشعث قذر ضامر الهيئة على أتم الاستعداد لارتكاب جريمة ليحصل فقط على قوت يومه، ومع ذلك كنت أرى نفسي محظوظًا لأنني بقيت حيًّا دون جرح غائر حتى بلغت سن التاسعة من العمر، تسع سنوات من عمري رأيت فيهم مِن الأهوال مالم يراه كهلٌ عجوز، افترشت الشوارع، والأزقة، وتدثرت بخرق بالية في عِزّ البرد القارس، واتخذت من الكلاب والقطط خيرَ أنيسٍ.

ذكريات قبيحة حاولت جاهدًا أن أنساها خصوصًا وجه نعيم -رحمة الله عليه- وذكرياتي معه، كان له وجه مستدير، ذا عينين صغيرتين، وابتسامة عريضة لا تفارق ثغره أبدًا، وما كان يتأنى رغم فقره، وضعفه، ونحول جسده عن تقديم أي مساعدة، أو رسم ابتسامة يمحو بها دمعة لا تقل سخونة، وأذى عن دموعه المكبوتة داخله.

كنت أحب الجلوس معه، ومناوشته كثيرًا كمزاح ثقيل على قلبه وخفيف على قلبي، فهو من علمني كيف أحيا، وأتنفس، وأنمو كحيوان أكثر منه إنسانًا، وللحق بفضله وفضل مرافقتي له كل صباح تمكنت من البقاء حيًّا في سنواتي الأولى، رغم كونها حياة قاسية جافة، تخلو من كل معاني الحب والأمان والدفء، ولا أثر للنجاة منها، وقلّما كان العالم يشغلنا إلّا إن كان يؤثر علينا بشكل مباشر ومحير.

في المساء كنت أعود مع سيد إلى جحرنا البائس تحت كوبرى قصر النيل حيث يأخذني نعيم بين ذراعيه في حنان ونلتمس في بعضنا البعض الدفء، والاحتواء، والأمان المحرومين منه.

كنت أنا ونعيم وسيد وثلاثة آخرين نقتسم معًا كل ما يقع في أيدينا من طعام أو ملبس أو عملات ورقية ومعدنية بالعدل وبالتراضي، ذلك كان يحدث قبل أن يتركنا سيد ليكون صبيًا من صبيان المعلم زاهر.

كان سيد طفلًا متوسط القامة، ونحيلًا بشكل مخيف، لكنه كما قال عنه نعيم "لئيم لؤم الذئب، ابن حرام يبيع نفسه لأجل الفلوس".. لكني كذبته وقتها وقلت بعصبية:

- أخونا ليس بلئيم فلا تقول عنه هذا.

- أخونا من الأب أمْ من الأم؟

- أخونا بالصداقة والعهد يا نعيم.

ضحك عاليًا، وقال:

- عهد.. ها.. أراهن أنه لن يتوانى لحظة عن قتلي لو كان في موتي مصلحة له.

- لا تهزأ.. وما الضرر في العمل مع المعلم زاهر، على الأقل أفضل من البقاء هنا والتحدث عنه من خلف ظهره كالنساء.

صدمته كلماتي، وبان عليه مزيج من الدهشة والحسرة قبل أن يرحل مطأطئ الرأس واجمًا، وأغدو وحدي ألملم المخلفات البلاستيكية من الشوارع، وأنتظر عودته بفارغ الصبر، ولما لم يعد بعد فترة، وأوشك المساء على القدوم ظننت أنني خسرته للأبد، وربما لن أراه مرة أخرى.. أفزعتني الفكرة، فهرعت إلى الجحر أبحث عنه، ولحسن الحظ، رأيته هناك، يجلس كعادته على فراش القش الخشن، وفي يده كوب شاي دافئ، لم أجد في نظراته قطّ كُرهًا أو غضبًا، كان فقط يتحاشى النظر إلى عيني أو التقرب مني كما لو كان يتهرب من كلماتي التي كانت لها أشد أثر على علاقتنا بعد ذلك.

وفي ليلة شديدة البرودة بعد بضعة أيام، راحت أسناني تصطك، وجسدي كله يرتجف، فما كان من نعيم إلا أن اقترب، وأخذني بين ذراعيه في حنان كما كان يفعل دومًا.. وعندما لمس جسدي دفء جسده حملني إلى نوم عميق خالي من الكوابيس.

النوم راحة لأجساد أنهكتها شظف الحياة، وغاية ثمينة لبائس مثلي يهرب من كوابيس العالم.

بعد هذا بيومين، جاء سيد متبخترًا في ثيابه الجديدة، وقد زاد وزنه، وامتلأت خدوده كدلالة على العِز.. بَهرني مظهره وتمنيت في سِري لو أكون مثله، وعليه عندما عرض علينا الانضمام له مع المعلم زاهر لم أتردد لحظة في القبول، لكن نعيم لم يقل شيئًا في البدء، ظل يستمع لسيد، وهو يتحدث عن طيبة وكرم المعلم، كان نعيم يبتسم أحيانًا، ابتسامة أذكر الآن غامضة، مثل شخص يحدث نفسه، وفي النهاية رفض بأدب، وقال لي على انفراد:

- لا تذهب معه فأنت طفل صغير ولم ترَ من قسوة الدنيا شيئًا.

قلت له في غيظ إنني رأيت ما يكفي، وأنه ليس في الحياة ما هو أسوء من معيشتنا تلك..

لن أنسى الدمعة التي طفقت من عينيه وهو يقول:

- إذا حان وقت الوداع.

امتقع وجهي، وقد استبدت بي الدهشة فتمتمت:

- ألن تأتيَ معي؟

- لا، أنت اخترت طريق سيد، وأنا اخترت طريقي، وهذان الطريقان لا يجتمعان.. سلام يا صاحبي.

ربت على كتفي، ثم استدار وابتعد، في حين اقترب سيد، وجذبني من ذراعي نحو بيت معلمه، راح سيد في الطريق يحكي عن خير المعلم وبيته وأعماله المريبة، لكنني لم أنبس بحرف واحد أو أسأل رغم غرابة ما يقوله، إذْ كنت لا أزال أفكر في نعيم، وكيف تخلّى عني بتلك البساطة، وهو من كان يقول إني عائلته الوحيدة، ولامجال للابتعاد عن بعضنا البعض، وها هو الآن يفعل، ولم أعرف حتى

ذلك اليوم أن جرح القلوب أبدًا لا يلتئم، ربما تضمده بعض الأحداث والذكريات لكنه سيبقى جرحًا يؤلم إلى أن تعترف بوجوده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان محقًّا! كنت طفلًا صغيرًا لم يرَ من قسوة الدنيا شيئًا.

عندما دخلت بيت المعلم زاهر في أحد الحواري الشعبية الفقيرة جدًّا، رأيت أولادًا حفاة بملابس بالية وجينزات مُرقعة ينظرون إليّ شزْرًا، كانت رؤوسهم إما مشعثة أو حليقة تفوح منها روائح صابون معطر، بدأت أرتجف وأسناني تصطك، وقلبي يخفق بجنون، وتمنيت لو كان معي نعيم أو أنا مَن كنت معه، ربت سيد على كتفي عندما استشعر برجفة جسدي، وابتسم قائلًا:

- ستعتاد على المكان، ففي حضرة المعلم زاهر لن تشعر بجوع أو برد أو خوف.

كان المعلم زاهر رجلًا عملاقًا أكحلَ الوجه، له فكّا حيوان مفترس وشاربٌ كثٌّ، يجلس بزهو على كرسي عالٍ، ولولا النارجيلة التي تقبع أمامه ليلًا ونهارًا، وهيئته البالية لبدا كأنه أمير على العرش، جلس أربعة رجال على يمينه وآخرين على شماله بملابس لا تقل عن ملابس المعلم اتساخًا وحقارة، فأين هو كرم وعطف المعلم الذي تحدث عنه سيد؟!

أشار إليّ المعلم بالاقتراب، فامتثلت، ودخل معي في حوار بسيط انتهى بإيماءة، وابتسامة رضا من ناحيته، وسمح لي بمشاركة الأولاد في وجبة الغذاء.

وفي حين الْتهم الأولاد الأرز، وقطع اللحم الشحيحة، وأرغفة الخبز البائتة التي لا طعم لها، ظللت أتابع المشهد هازًّا ساقي، وفكرت أني تركت "نعيم" من أجل وجبة أتشاركها مع جياع على فراش قذر في بيت حقير ليس لي فيه مكان.

عندما مرّ بذهني هذا الخاطر شعرت بتأنيب الضمير، وفهمت من سيد بعد ذلك أن الأكل بمواعيد، ودخول الحمّام بمواعيد، وشرب الماء أيضًا بمواعيد، أما الكلام فهو غير مسموح به إلا للضرورة القصوى، قلت لسيد إن هذا غير معقول، فقال إنه النظام تمامًا كالمدارس التي تمنيت الالتحاق بها، حاولت كثيرًا أن أفهم أو أسأل.. لكني أدركت، بعد أيام، من الصمت والخضوع أن تنفيذ الأوامر هو وحده المسموح به.

بعد أيام وليالٍ طويلة من التدريب والتلقين وجدت نفسي في المكان المتفق عليه ألعب الدور الذي رسمه لي المعلم زاهر آنذاك!

في عز النهار، والشمس في كبد السماء تصب أشعتها فوق رأسي وكأن بيني وبينها ثأرًا قديمًا، وقفت على الرصيف أتصبب عرقًا، وعيوني لا تبارح السيارات المتحركة والمركونة هنا وهناك. كان الطريق مزدحمًا وأبواق السيارات تصل إلى عنان السماء، بحيث لا يمكن لأحد أن يتخيل أن الجرائم التي تتم في العلن أكثر من التي تتم في الخفاء.

بعد نصف ساعة من انتظاري تقريبًا، وقفتْ على بُعد سيارة زرقاء صغيرة الحجم بها شخصان: شاب وفتاة. غمز لي جُمعة البدين الذي لا يزيد عن خمسة عشر عامًا على الأكثر، فاقتربت منهم بخطى

حذِرة، وقلب يكاد ينفجر من بين ضلوعي، وحلقي جاف، سألت السائق عن اسمه فأجاب بالإيجاب، فقلت له بسرعة كما تعلمت "انجز".

سمعت صوت "جُمعة" يأتي من قريب:

- خد بالك الأمين قدامك.

وفي لمح البصر سحبت رزمة المال من يد الشاب، وألقيت له بكيس المخدر، ثم انطلقت جريًا وكأنني عداء في مارثون عالمي.

سأعرف مِن جُمعة لاحقًا أن سيد هو من كان يقوم بهذا الدور، ولأنه الأقل أهمية والأكثر خطورة من بين مهام المعلم أراد تغييره، وليفعل هذا كان عليه أن يجد بديلًا، وكنت أنا الساذج البديل.

"لئيم لؤم الذئب.. ابن حرام يبيع نفسه لأجل الفلوس" صدقت يا نعيم.

لو تعود الأيام إلى اللحظة التي تركتك فيها وتركت حضنك الدافئ..

لو تعود الأيام لما قلت ما قلته، ولا جرحتك بكلمة واحدة.

لكن الأيام أبدًا لا تعود.. تبقى مجرد "لو تعود الأيام" في مخيلاتنا لنتعذب أكثر، لنندم أكثر فأكثر إلى أمد الحياة.

كانت تخطر على ذهني كثيرًا فكرة العودة إليه.. لكن الخجل والخوف كانوا لي بالمرصاد، اختيار الهجر سهل لكن قرار العودة يعتمد على قبول أو رفض الطرف الآخر.

فكنت أفكر، ماذا لو رفض نعيم استضافتي؟ ماذا سأفعل؟ وإلى أين سأذهب؟ تمامًا كالهارب من وطنه فبات سجينًا لغربته..

وعندئذ أدركت رغم صغر سني، أن الوطن ليس بالضرورة أن يكون ترابًا وبحرًا وهواءً، الوطن قد يتمثل في حضن بيت، أو حضن أسرة، أو حضن فرد واحد كحضن نعيم.

ليتني ما تركتك..

وليتني ما عدت إليك.

بعد فترة طويلة قد تتعدى العامين، استدعاني المعلم وغيّر نشاطي.. هكذا قالها:

- سنغيّر نشاطك يا فتى، فأنت سريع، ووسيم، وملامحك بريئة محببة للقلب، وتصلح للنشاط الجديد.

حدث هذا بعد عِدة أيام من موت جُمعة إثر جرعة مخدرات كنا نحملها معًا لأحد الزبائن، لكن الفضول والطمع ساقه إلى حتفه.

الله رحمه.

النشاط الجديد كان أسوء بكثير مما توقعت، ألبستني زوجة المعلم ثيابًا نظيفة، ومشطت شعري، وأغرقتني برائحة العطر، فلم أتعرف على نفسي في المرآة، وودت لو أبقى هكذا طوال عمري.

عندما أقبل الليل وعشش، كنت أقف منتصبًا في أحد الأزقة المهجورة، وكما طلب منّي رحت أبكي وأنادي على أمي.

كنت في نظرهم ممثلًا بارعًا يتقن الدور بحذافيره، لكن في أعماقي، كنت أبكي بصدق وأنادي على أمي لعلها تأتي وتنتشلني من كل هذا.

عبثًا كنت أنادي..

قطع نحيبي رجل عجوز، أقبل عليّ وهو يتكأ على عكازه، ولعله رأف بحالي، فقال" لماذا تبكي يا صغير.. أين هما أبواك؟".

لم أعتَدْ على نبرة الأدب تلك، فرفعت رأسي ودققت النظر في وجهه، كان بلا شك رجلًا وسيمًا، له عينان ناعستان رقيقتان، وشعر أشيب غزير، وقبل أن أرُدَّ بكلمة واحد، انقض عليه من خلف ظهره أحد رجال المعلم، وأفقده الوعي بضربة قوية على رأسه، ثم نهب كل ما كان يحمله في جيوبه، وعلى دراجة نارية انطلقنا هاربين.

لكن قبل أن أفعل، وضعت يدي على صدر العجوز، وتأكدت أنه يتنفس، فلا أحد يخشى الموت أكثر من شخص قريب منه أو متسبب فيه.

واستمر الحال على ذات الحال. أبكي وأنادي على من لن تأتي أبدًا، وتتغير الفريسة من عجوز لامرأة لشاب لعجوز آخر وامرأة أخرى، أعجبت اللعبة المعلم فزاد عددنا وزاد عدد فرائسنا، وتحولت الدراجة النارية لسيارة ملاكي تتغير أرقامها كل فترة، إلى أن جاء يوم كانت فيه الفرائس فتاتين يانعتين تعيسات الحظ، قادهما قلباهما الأبيض إلى بكائي اللعين فوقعا في شباك مَن لا يرحم.

ففي تلك المرة حملهم الرجال معنا في السيارة إلى بيت المعلم، المعلم الذي دخل عليهن تباعًا أمام أعين زوجته اللامبالية، ومن بعده دخل الرجال فردًا فردًا وجمعًا جمعًا على أصوات صراخهن، وعويلهن الذي لم ينقطع لأيام طويلة مريرة.

إحدى الفتاتين كانت تردد أحيانًا اسم واحد وتستنجد به: اسم حسام، حتى أن بعض الرجال كانوا يسخرون منها ويطلقون عليها هذا الاسم.

وقد فكرت يومًا أن أسألها عن مكانه وآتي به مع الشرطة لنجدتها، وتخيلتها وهي تربت على رأسي وتنظر إليّ بعينين دافئتين، وربما تصطحبني معها، لكنها ماتت قبل أن أفعل.. ماتت وارتاحت من الدنيا وما فيها.

وأمر المعلم بقتل الفتاة الأخرى ليتوارى معًا تحت التراب بأجسادهن الدامية، وشرفهن المُغتصب، وأرواحهن الطاهرة. تلك كانت اللحظة التي غيّرت مصيري وفتحت عيني، فيهن رأيت حماقتي، ودناءتي، وغبائي، وضعفي، وعزمت على ألّا أترك أحد يسوقني إلى نفس الفعل، فهربت، ولكي أقطع الشك من اليقين ذهبت إلى نعيم، بحثت عنه في جحرنا القديم فوجدت بدلًا منه أبنية، وعقارات مشيدة حديثًا، بحثت عنه وسط أكوام النفايات من دون أثر.. أين أنت؟!

وجدت نعيم في المساء يفترش ركنًا في أحد الأزقة المهجورة القريبة، وكم كانت فرحتي وفرحته بهذا اللقاء، وكأن العمر لم يمر، والبعيد عن العين ليس بالضروري أن يكون بعيدًا عن القلب.

لكن الفرحة لم تدُم طويلًا، وفوجئت بسيد يقف أمامي زاعقًا:

- تعالى معي.. المعلم يريدك.

قال بحزم، وعيونه تقدح شررًا.. العلاقة بيننا في الفترة الماضية كانت هامشية جوفاء، ومع ذلك لم أرَ منه سوى الابتسام واللطف، أما في تلك اللحظة فكان أشبه بحيوان شرس على أتم الاستعداد للفتك.

قلت له بحزم مماثل:

- لن أعود معك.. لا أريد العمل معكم بعد ما حدث.

تدخل نعيم وحال بيننا بوجه مضطرب:

- ماذا يحدث هنا.. ماذا فعل الولد يا سيد؟

- لا تتدخل يانعيم.. الأمر بيني وبينه.

ثم الْتفت إليّ وقال وهو يسبُّ ويلعن أن المعلم قال له أن يأتي بي حيًّا أو ميتًا ثم أخرج مسدسًا ولوَّح به أمامنا.. هذه كانت المرة الأولى التي أرى فيها سلاحًا بهذا القرب وفي يد طفل لا يتجاوز عمر العشر أعوام، فتلك كانت من الأمور المحرمة في بيت المعلم.

فهل سرقه سيد؟ لا لم يسرقه.

المعلم زاهر بنفسه هو من أعطاه إياه ليأتي بي حيًّا أو يتخلص مني كما تخلص من الفتاتين.. هذا وحده التحليل المنطقي للأمر.

قلت له بصوت يرتعد خوفًا:

- قُل للمعلم إنني لن أعود.. ولن أتفوه بكلمة واحدة أمام أي مخلوق.. أرجوك، من أجل الصداقة والأيام الطيبة أتركني.

وقف سيد ساكنًا من دون حراك لحظة واحدة يملؤها التردد. كان المكان خاويًا، والضوء خافتًا تحت ظلام الليل الدامس، ولولا صوت أبواق السيارات القادمة من بعيد لقُلت إننا انتقلنا فجأة للصحراء.

أومأ سيد برأسه كإشارة على الموافقة، وخفض رأسه في استسلام قبل أن يرفعها مجددًا، ويرفع معها المسدس الذي نزل بمقبضه على رأس نعيم. بُوغِت نعيم وفقدَ توازنه وتأرجح من فوره ليفسح الطريق بيننا.

اندفع سيد بقوة في اتجاهي وهو يهم بضربة مماثلة على رأسي، لكني تمكنت من تفاديها بأعجوبة ودفعته بدوري، فثارت ثائرته، وضربني على صدري بقوة وأخرى في معدتي، فتهاويت على الأرض، ورحت أسعلُ خاويَ القُوَى.

كان من الممكن أن ينتهى الأمر بسيد يجرجرني على الإسفلت حتى بيت المعلم زاهر، غير أن نعيم بشجاعته وطيبة قلبه ما كان ليسمح بهذا، واندفع اندفاعة قوية في اتجاه سيد، فتعثر الأخير وسقط على وجهه بعد أن تملكته الدهشة. وراح نعيم بعدها يركله ويسدد اللكمات على وجهه وظهره وكل جزء من أجزاء جسده دون تروٍ. وقبل أن أستوعب ما يحدث أو ما سوف يحدث، تردد صوت طلق ناري في الأرجاء ومعه رأيت نعيم يتوقف عن تسديد الضربات ويتهاوى على الأرض وسط بركة من الدماء.

قتله سيد -اللئيم لؤم الذئب، ابن الحرام الذي يبيع نفسه لأجل الفلوس- بطلقة نارية من مسدس المعلم زاهر، فتحولت العبارة التي أطلقها نعيم مازحًا ذات يوم إلى نبوءة.

وقف سيد بعدها هادئًا، مترنحًا بوجه دامي وأنفاس متقطعة، ثم أردف:

- لا أريد أن أراك مرة أخرى مفهوم، وسأقول للمعلم أنني قتلتك.. من أجل الصداقة والأيام الطيبة سأفعل وأتركك ترحل.

في الحقيقة أنا مَن تركته يرحل وينجو بفعلته، ومن بعده غادرت الزقاق هربًا من رائحة الموت وصفارات الخطر.

الكلب لا يفعل هذا، الكلب يحزن وينفجع على موت صاحبه، ويبقى جامدًا بجواره إلى أن تأتي المساعدة، فليتك اتخذت من الكلاب رفقة بدلًا من واحد قاتل وآخر جبان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد تلك الليلة، تعرفت على ما هو أكثر إيلامًا وأذًى من كل ما سبق. تعرفت على الوحدة، ومع الخوف والحزن والندم كنت أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن أسلم روحي لعزرائيل فأكون جثة أخرى بلا قيمة في سجل اللاهوية، أو أمد يدي للمارة في انكسار وذل شديد يليق بمتشرد جبان..

ولأنني فعلًا وقتها كنت متشردًا جبان لا يعرف معنى الكرامة، وعزة النفس وجدت طريقًا مبسطًا في مهنة التسول. وعندئذ رأيتها، سيدة حسناء في منتصف الثلاثين، فارعة الطول لها جسد ممشوق وشعر بني قصير، لكن أكثر ما لفت انتباهي وقتها كانت نظرة عيونها.. نظرة لم أعهدها من قبل.

رأيت قبلها نظرة العطف ونظرة الشفقة ونظرة الغضب ونظرة التقزز في عيون الناس لكن تلك النظرة كانت غريبة وغامضة، وعرفت فيما بعد إنها نظرة الحنان.. قليلون هم من يبدون تلك النظرة ويدركون قيمتها على تغيير النفس والكون.

اقتربت مني، حتى وقفت أمامي، وتسلل إلى أنفي شحنة من عطرها المميز، تلك الرائحة التي بقيت تدغدغني، وانتظرها بفارغ الصبر.

قالت لي بوداعة:

- مرحبا، ما اسمك؟

لم أُجب، وظللت برهة انتظر أن تذهب أو تمد يدها بورقة مالية، لكنها لم تفعل هذا أو ذاك، واستأنفت:

- أنا زهرة وأنت ما اسمك؟ يمكنك أن تقول أي اسم تختاره وليس بالضرورة اسمك الحقيقي.

كان صوتها ناعمًا ودافئًا، وأحببت نظرة عيونها، ولا أعرف لماذا خامرني نفس الإحساس الذي اعتراني ليلة سمعت الفتاة -التي لم ولن أعرف اسمها أبدًا- تستنجد بِاِسْم حسام، وتمنيت لو أكون بطلها الحسام.

وهنا خرج الصوت من حلقي، وكأنه ليس صوتي:" اسمي حسام".

فابتسمت في رضا، وقالت:

- وأين أهلك؟

- لا أعرف. ندمت على ما قلته في نفس اللحظة فمددت يدي مرة أخرى وقلت" حاجة لله يا ست هانم".

ضحكت:

- سأعطيك كل ما تريد فقط لو قلت لي بصراحة ماذا تريد من الحياة؟

تلك كانت المرو الأولى التي يسألني أحدهم هذا السؤال فسخرت منها في البدء، ولما استشعرت بالجد في كلامها، قلت بخجل: "أريد أن أذهب إلى المدرسة وأنام على فراش دافئ". عندئذ سمعتها تقول الجملة التي لن أنساها ما حييت: "ستفعل، وستكون ذا شأن عظيم".

وراحت تحكي عن البيت الذي سأعيش فيه، وعن المدرسة التي سألتحق بها، وعن الحياة الدافئة التي تنتظرني، وقالت بثقة إنها ستتكفل بكل شيء.

ولم أستطع من شدة دهشتي أن أقول شيئًا، فكنت أستمع إليها ما بين مصدق ومكذب، وفي النهاية تركتها تمسك كفي بحنو، وسِرتُ معها صامتًا، أفكر في حياتي البائسة القذرة، وأقنع فؤادي أنّ أي حياة مع تلك المرأة لن تكون أسوء من حياتي بدونها.

مَن يظنّ أنّ مولده يبدأ من اللحظة التي يخرج فيها من بطن أمه فهو ساذج لا محال، مولدك الحقيقي يبدأ من اللحظة التي ترى حياتك النور وتتجلى السعادة في ملامحها.

قريبًا من الساعة الرابعة بعد الظهر وصلنا إلى شقة بسيطة في منطقة وسط البلد، حيث وقفنا متجاورين على عتبة الباب وزهرة هي من قرعت الجرس، وسرعان ما انساب إلى مسامعي صوت وقْع خطوات ثقيلة وبطيئة، وفُتح الباب امرأة قصيرة سوداء، ما يزال فيها -وهي تقارب السبعين- بقايا جمال. استقبلتنا بابتسامة جافة، وأجلستني على كرسي وثير أخضر اللون، وراحت تتحدث مع زهرة بصوت هامس. تركتهم، وجلت ببصري في المكان، فرأيت غرفتين على اليسار، ومطبخ وحمام على اليمين، دقائق، ودخل البيت صبيَّانِ وسلّما عليّ، الأكبر منهم كان عزام ذا الاثني عشر عامًا، والأصغر مؤنس ذا السبعة أعوام، ومعهم امرأة بيضاء بدينة في الستين على الأكثر تدعى خالة "سُعدة" أما المرأة السوداء فكانت تدعى فتحية المعروفة لدى الجميع بلقب أبلة "فتحية".

عرفتني زهرة على الجميع، وقالت إني سأشارك الصبيان غرفتهم، أما الغرفة الأخرى فهي مخصصة لأبلة فتحية وخالة سُعدة، وهن من سيتوليان رعايتنا وتعليمنا على حد سواء.

الْتفت إليّ الصبيان ظنًّا أنني سأرى منهم التذمر أو الغضب، لكني رأيت لامبالاة من مؤنس الطفل البدين، وترحيب من الطفل الآخر "عزام"، التقطت زهرة ثمرة تفاح حمراء اللون تسيل اللعاب من أكياس المشتريات التي جلبتها خالة سُعدة وناولتها لي بعد غسلها، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتناول فيه ثمرة تفاح طازجة وليس بقايا منها خرجت من أكوام النفايات.

أحببت مذاق التفاح في فمي وسرعان ما شعرت بالراحة والسكينة تسري في أوصالي، وبدا لي أنّ الأيام التالية ستحمل معها أكثر مما حلمت يومًا.

وقد كانت كذلك بالفعل.

فبيت زهرة سيشهد على ولادة طفل جديد يتعلم الحبو والمشي والكلام. فتحت عيناي على اتساعهما لأتعلم وأقرأ، وأفكر كإنسان، وكانت زهرة هي الأم الروحية الحانية لطفل مأخوذًا ومتوجسًا من كل ما يراه وما يتعلمه، تأتي دومًا محملة بالابتسامات والهدايا وتبقى لسويعات قليلة، ثم تذهب على أمل العودة بعد يومين أو ثلاثة.

أحببت التعلم، وأحببت القراءة، وسهر الليل أمام الكتب المدرسة وغير المدرسية، ووقعت في عشق الأدب خصوصًا أدب الروايات، معها كنت أنسى نفسي السابقة وأتقمص شخصيات جديدة تحلق في سماء الشجاعة والحب والحزن والألم والأمل، فكانت تذكرتي للهروب وملجأي الوحيد لأتخلص من ذكريات الماضي واستبشر خيرًا بالمستقبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أسعد في حياتي بقدر ما سعدت ذلك اليوم، من شهر أكتوبر 2013، وهو اليوم الذي عرفت فيه معنى الإخوة.

كنا أمام البيت، أنا ومؤنس وعزام، مع بعض أبناء الجيران. نلعب بكرة القدم تارة، ونلقي النكات أو نسخر من المارة تارة أخرى، حدث كل شيء بغتة وعلى نحو سريع من لحظة قال مؤنس نكتة عن ولد صعيدي غبي ذهب إلى والده باكيًا لأن مُدرسَه قال عنه غبي، لم يكمل مؤنس النكتة لأن أحد الصبية، وهو ولد أسمر قصير القامة ممتلئ الجسم أمسك به من تلابيبه، وحذّره من التطاول على الصعايدة مرة أخرى لأنهم أشرف منه ومن أبيه. أومأ مؤنس برأسه فزعًا وترقرق الدمع في عينيه، فما كان من عزام إلّا أن انقض على الصبي كقط شرس وأوسعه ضربًا، وكذلك فعلت لاإراديًّا مع صبي آخر وآخر، عدنا بعدها البيت متواطئين ومكللين بخوف عظيم من صيحات أبلة فتحية، وخالة سعدة، وعدد من الكدمات والجروح، وصلة قرابة لا تقل صلابة ومتانة عن رابطة الدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما سألتني نسرين مَن أكون في بيت شبرا بلولة قلت لها بعض مما سبق، وأضفت عليه أن زهرة طلبت لقائي قبل بضعة أيام، وأخبرتني بدموع حارة وجسد ينتفض بعض الأسرار عن المشروع وعن حالة نسرين.

نصحتها بأن تخبر نسرين بكل شيء، لكنها قالت:

- لو عرفت ما ارتكبته بحقها لن تفهم وستحتقرني، أعرف أنها ربما تكرهني لكنها على الأقل تحترمني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"حين أرى الظلم في هذا العالم، أُسلِّي نفسي دومًا بالتفكير في أن هناك جهنم تنتظر هؤلاء الظالمين".

جان جاك روسو

[14]
نسرين

شبرا بلولة - 2025

وكأن كل ما عرفته وعانيته في الساعات الماضية لم يكن كافيًا، ليأتي حسام بقصته تلك ويزيد من آلامي وذكرياتي سُوءًا.

قطع الصمت الذي غشي الغرفة لدقائق صوت فتح الباب، ودخل منه عزام ومؤنس تباعًا وهم واجمين مطرقين الرأس مثل زوار القبور.

الْتفتُّ نحو حسام، وسألته:

- هل كانت تأتي لزيارتكم يومي الاثنين والخميس؟

- نعم، قالها ببساطة كما لو أنها ليست كلمة ستغير ظنوني بأكملها.

- اعتقدت أن لها عشيقًا.

قال حسام مستهزئًا:

- عشيقًا! ها، أنتِ فعلًا، لا تعرفين عنها أي شيء.

مسحت الدموع التي انتبهت لها للتو، وتحاملت على نفسي لأنهض واقفة.

- يجب أن أذهب إليها حالًا؟ يجب أن أتحدث معها؟

أطرق عزام برأسه، فيما بدت الحيرة على وجه مؤنس الذي قطّب حاجبيه الكثيفين قائلًا:

- ألم تخبرها بعد؟

يخبرني بعد!!

سألت حسام بانفعال شديد:

- تخبرني بماذا! ما الذي يتحدث عنه؟

عاد حسام ببصره إلى النافذة، وقال من دون أن يلتفت نحوي:

- توفيت زهرة في بيتها صبيحة اليوم المشئوم، زهرة فارقت الحياة، أنا آسف.

لست بلهاء..

حدثني قلبي بموتها..

كنت أشعر أنها كذلك من لحظة ما ذكرت اسمها أمام حسام في أول مرة التقينا فيها، ورأيت الصدمة في عينيه، وقد تحاشيت تقريبًا الحديث عنها طوال تلك المدة لأن عقلي كان يرفض التسليم بالأمر وقتها..

أحيانا يعجز العقل عن تصديق الكوارث غير المعلنة ليؤجل الحزن بقدر المستطاع.

وفي تلك اللحظة كان عقلي يرفض أكثر وأكثر..

امتلأت عيناي بالدمع وأنا أقول في نفسي "أمي" هناك أشياء لم نتحدث عنها بعد، وأسرار لا نعرفها عن بعضنا البعض، لا يمكنك أن ترحلي الآن وتتركني في هذا وحدي، ليس الآن يا أمي.

شعرت بدوخة، وصرخت عاليًا:

- أنتَ تكذب، أنتم كاذبون.

واندفعت إلى الخارج بخطوات واسعة كمن يلحق بقطار، ولم أكن قد سرت خمس خطوات إلا وكان مؤنس أمامي يعترض طريقي بجسده العريض، فدفعته بكل ثقلي ليسقط على الأرض وهو يئن من الألم.

عندها انقض عليّ حسام من الخلف وعزام من الأمام، مطوقين إياي بذراعيهما كالقفص، وقال حسام:

- اهدأي أرجوك، اتركيها بسلام، اتركيها ترحل في سلام.

عجزت عن الحركة بينهما، وعن الكلام، وعندما أحسست أنَّ قُواي خارت، سقطت على ركبتي ببطء شديد.

آهه، طويلة مريرة خرجت من بين شفتي في وهنٍ، وصرخ كل جزء في جسدي وهو يقول "أمي".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[15]
انتصار الأهوج

بنها - 2021

في اليوم الذي تخرجت فيه من الثانوية العامة بتقدير امتياز، أعدّت أمي كل ما لذَّ وطاب على مائدة العشاء لنحتفل معًا بهذا الإنجاز العظيم في هدوء أقرب إلى الملل. لو كانت "تيتة زبيدة" لاتزال حية لاحتفلت معنا، ولربما أقامت لي احتفالًا ضخمًا يشهد له كل مَن بالحي، إلا أنها مع الأسف توفيت قبل ذلك بسنوات، وتركت أبناءها ينهشون بعضهم البعض على الملأ في الجنازة دون ورع أو خجل.

لم أحزن عليها بقدر ما ظننت، فمن يحب أحدًا حبًّا صادقًا نابعًا من القلب لن يرضى له بالبقاء وسط الأدوية والألم وخيبات الأمل المتتالية التي كانت تعاني منهم "تيتة زبيدة" على الدوام.

بعد وفاتها بأسبوع قالت أمي وهي تقطع البطاطس وتتبل اللحم لإعداد طعام الغذاء:

- أولاد الحاجة زبيدة باعوا بيتها لدكتور يعيش مع أسرته في أمريكا.

فتمتمت:

- توقعت أنهم سيفعلون هذا لكن بعد الأربعين على الأقل، يبدو أنهم أحقر مما تخيلت.

تنهدت أمي، وقالت:

- الله يرحمك يا حاجة زبيدة.

فأكملت:

- ويصبرك على خيبة أملك في أولادك، في حياتك وفي مماتك.

ثم عدت لغرفتي مغمومة، وفتحت أول صفحة من رواية "الأوباش" لخيري شلبي.

كان المالك الجديد هو الدكتور مؤمن مرزوق، دكتور جامعي يعيش في مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ولا يأتي إلى مصر بصحبة أفراد أسرته إلا لأسبوع واحد كل عام.

أحببت الدكتور مؤمن وزوجته كثيرًا، ووجدت فيهما البساطة والطيبة الريفية مع حنين دافئ لذكريات عفا عليها الزمن، أما بناتهم الثلاث -أمنية وأميرة وأماني- فلم أجد في نظراتهن وعلى أفواههن سوى الاستهجان والاستياء من كل شيء:

- مصر أسوء بلد بالعالم.

- كيف تتحملين العيش هنا؟

- المياه ملوثة، الشوارع قذرة، حركة المرور والسير لا تحتمل، السموم في كل شيء.

- آه، لو رأيت أمريكا. آه لو رأيت أوربا، أنتِ فعلًا تعيسة الحظ.

- دولة نامية! ها، وما الذي تنمو عليه: الجهل.

وهكذا، يسخرون من بيئتهن ويتبرأْن من هُويتهن الأصلية، فباتوا في نظري كمن يرقص على السلالم، لا هن ينتمون إلينا، ولا ينتمون إلى أي بلد آخر، سيأتي عليهن يومًا يدركون فيه هذا، وسيتألمون، فلا شيء أكثر إيلامًا وأذى من أن تكون كارهًا لبلدك، ومكروهًا في بلاد غيرك.

أنا لم أكره القليوبية يومًا، ولم أفكر في تركها قط. وبالرغم من الوحدة والأسى الذي شعرت به في كثير من الأيام، كان لي بها لحظات حلوة، وذكريات تجعل نسيانها شبه مستحيل، لكن على طاولة العشاء ومع استرسال أمي لخطة مرسومة وضعتها بمفردها لأجل مستقبلي وجدت نفسي أفعل، وخيل لي وقتئذ أن كل شيء من حولي بمثابة سور حجري يفصلني عن العالم الخارجي ويقيد حريتي. أردت منذ فترة التحرر من قبضتها وتأثيرها السلبي على شخصي: أين أنتِ؟ ومع مَن؟ هذا ممنوع، وذاك مرفوض، حتى الصديقات كان لها رأي فيهن وتقحم نفسها بيننا، فسمعت نفسي أقول بصوت واثق مسموع:

- سألتحق بكلية فنون جميلة.

أطبق علينا صمت ثقيل لثوان، ثم لاح عليها الاستهجان، وأردفت:

- فنون جميلة! أعلم أنك تحبين الرسم لكن الهواية ليس لها علاقة بالتعلم.

سألتها:

- ومن قال هذا؟

فردت بحدة:

- أنا أقول هذا، حبيبتي الرسم شيء ممتع، لكنه شيء ثانوي أو ترفيهي وليس أساسيًا في حياتنا، ثِقِي بي كلية الطب هي الخيار الأنسب لنا.

زادني كلامها عنادًا، فقلت بحدة مماثلة:

- حسمت أمري، وسألتحق بكلية فنون جميلة جامعة إسكندرية.

هتفَت في ذعر:

- إسكندرية!!

اتسعت عيناها في ذهول، وبدت بعدها كمن فقدَ النطق فجأة. ويجب الاعتراف أنها كانت ستتقبل قرار الالتحاق بكلية فنون جميلة ولو على مضض، لكن ما ألهب النقاش فعلًا هو اختيار جامعة إسكندرية.

سكتنا للحظات، ثم أضفت كأنني أستدرك على ما قلته:

- سنستأجر أنا وهيام وجويرية شقة في الإسكندرية ونعيش معًا. ثِقِي بي، الإسكندرية هي الخيار الأنسب لي. شددت على الحرف الأخير.

كانت هيام، من النوع الذي يعرف ماذا يريد، وكيف يصل، وإلى أين سيذهب. كانت نحيلة، ولها شعر كثيف وناعم تخفيه دائما تحت الحجاب، ولها وجه جميل وعينان بلون العسل السائل. تعرفت عليها من أول يوم في المرحلة الإعدادية، وشد انتباهي نبرة الثقة في كلامها، وطريقة تفكيرها الأكبر من سنوات عمرها، وبعد وقت قصير جدًّا صرنا أعز، وأقرب صديقتين، لكنها قررت قبل عام أن تنتقل لتعيش في الإسكندرية بعد نتيجة الثانوية العامة، وتستكمل تعليمها الجامعي هناك لتستقل بحياتها بعيدًا عن زوجة أبيها التي تقول عنها دائمًا: "لو تحولت زوجة أبي لمادة سائلة لقتلت كل مَن بالعالم بسمومها الفتاكة".

فنضجُّ جميعًا بالضحك، وندعو لها بالصبر والسلوان.

تمنيت آنذاك أن تكون مجرد فكرة عابرة وستنساها، لكنها لم تنسَ، بعد أن لاحظنا أن عددًا كبيرًا من طلبة القليوبية يفعلون هذا الشيء: يبدأون حياة جديدة خاصة بهم بعيدًا عن أعين الرقابة، وما لبثت جويرية ذات المظهر الجدي، والقلب الطيب، والأسنان البيضاء كاللؤلؤ أن انضمت إليها في خطتها تلك، يدفعها عشق غير محدود لبحرها، وهوائها، وشوارعها القديمة، والحديثة، وكثيرًا ما كانت تستهلُّ الكلام عن قلعة قايتباي، ومكتبة الإسكندرية، وحدائق المنتزه، وبحر المعمورة، وكوبري ستانلي، والتمشية على الكورنيش مع تناغم أمواج البحر الهائج، وتنهي كلامها دومًا بتنهيدة اشتياق.

وعليه تحوّل الاثنتان فجأة لسيدات أعمال ناشطات في رسم مستقبلهن، ولا شاغل لهن سوى الحديث عن الإسكندرية، وتدبير أمورهن هناك، ولم يخطر ببالِ أحدٍ أنني سأنضم إليهن، ويكون لي غرفة في شقة بكامب شيزار نقتسم إيجارها شهريًّا، ونتشارك في كل شيء كأخوات أقرب من صديقات.

تركت أمي تلملم أفكارها، وتتفهم الأمر، وبعد لحظات أردفت:

- حسنًا، أنا موافقة على كلية فنون جميلة بالقاهرة، وسننتقل من الغد لنعيش معًا فيها.

فقلت بتصميم:

- أنا قلت جامعة إسكندرية مع هيام وجويرية، أنا لست طفلة.

انتصبت واقفة، وهتفت بعصبية:

- مستحيل، انسِي هذا الأمر تمامًا.

وقد ظننت في البدء أن سبب هيجانها الحقيقي هو الخوف من حياة المدينة، حتى أضافت وهي ثائرة:

- لن أسمح لك بالابتعاد عن عيني أبدًا، أو الاقتراب من أيٍّ كان إلى تلك الدرجة.

وانتبهت إلى هفوة اللسان على أثر وقوعها فلاذت بالصمت، لكن كلماتها وقعت على رأسي كلسعة السوط، فرمقتها بنظرة شاردة، فاغرة الفم كمن أصابه الفزع، ثم تحولت إلى تحدٍّ صريح، وقلتُ بعناد:

- أنا لا أطلب منك الإذن أنا فقط أعلمك بقراري.

- طلبك أو قرارك مرفوض. انتهى النقاش.

- أنتِ تقتلينني بعنادك.

- أنا بحميك.

- من ماذا؟! الحياة من دونك! فأنا متأكدة أنها ستكون أفضل بكثير.

وخشيتُ من عدم القدرة على أن أحبس في صدري نشيج البكاء فاندفعت إلى غرفتي، وقد صرت أكثر عزمًا وإصرارًا على كلية فنون جميلة جامعة إسكندرية، وعلى الاستقلال بحياتي بعيدة عن تلك المرأة المتسلطة الخرفة، وبعد الكثير والكثير من الإلحاح، والمشاحنات، والوعيد، والمنطق، والحيل، والمماطلة في الأسابيع الموالية.

أذعنت أمي.

وقبل أن تفعل بأيام قليلة راحت تسعل كثيرًا على غير العادة، وترتدي ملابس شتوية رغم سخونة جو الصيف اللاهب. وفوجئت بها تنهض بصعوبة، وقد بدأ المشيب يقتحم رأسها وهي بَعد في منتصف الأربعين من العمر.

وذات يوم عادت إلى البيت في وقت متأخر من النهار، وظلت ساكنة على أريكتنا الزرقاء لعدة ساعات، فبدت أشبه بتمثال حجري أكثر منه إنسانًا.

جلست بجوارها بعد أن لعب الفأر في جوفي، وسألتها:

- أمي هل أنتِ بخير؟

أومأت برأسها ولم تنبس ببنت شفة.

فعدتُ عليها السؤال:

- أمي، ما بك؟

اعتدلت عن اتكائها إلى جانب الكنبة، وبادلتني السؤال بسؤال آخر لم أكن أتوقعه:

- متى سترحلين؟

أجبت بزهو:

- الخميس القادم.

ونظرت نحوها لأتشفى برؤية الغيظ من عينيها أو الغضب لكنها طالعتني بعينين هادئتين منهكتين، وقالت:

- كوني حذرة على نفسك، ولا تتورطي في المشاكل.

قلت في ثقة:

- سأفعل، لا تقلقِي، وسيكون أفضل قرار اتخذته في حياتي.

أومأت برأسها، ثم نهضت ببطء في اتجاه غرفتها، وفي منتصف الطريق توقفت، ومن دون أن تلتفت قالت بنبرة حزينة أشبه بغصة ما قبل البكاء:

- قرارتنا قد تبدو صحيحة في الوقت الراهن، لكن مع مرور الزمن نُدرك حقًّا إن كانت صحيحة، أم مميتة.

واستكملت طريقها، حاولت مع نفسي أن أستوعب ما ترمي إليه تلك الكلمات، لكني في الحقيقة لم أهتم، ولم أسألها عما تقصده في اليوم التالي ولا أي يوم بعده، واعتبرت الأمر انتصارًا غير مسبوق على امرأة لا تعرف الاستسلام أو الإنصات لابنتها. ولم أعرف، أنني سأستعيد تلك الواقعة لاحقًا، وأندم.

لو أنني تصرفت تصرفًا آخر في تلك الليلة، لو أنني دخلتُ عليها الغرفة، وتركتها تشاطرني السر الذي ينهشها من الداخل وينهشني أيضًا لسنوات، لربما، نعم ربما، تغير المصير وكانت هي لاتزال على قيد الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[16]

بحر الهوى

الإسكندرية - يوم الخميس المنتظر

دلفتُ إلى أمي في وقتٍ مبكرٍ من صباح يوم الخميس، وكانت تجلس على السرير، مسندة الظهر بوسادة قطنية، أمسكت كفي بكفَّيها، وافترَّ ثغرُها على ابتسامة باهتة.

- هل كل شيء جاهز حبيبتي.

- نعم، أمي.

- تمام.

قلت لها بثقة:

- سأكون بخير، لا تخافي.

- إن شاء الله.

ولأول مرة منذ زمن بعيد أمسكت برأسي بين كفيها وطبعت قبلة حانية على جبهتي هي الأخيرة.

ثمة سيارة ملاكي في الانتظار خارج البوابة الأمامية، ركبنا فيها أنا وهيام متألقتين بالحماس والسرور، قالت هيام:

- أخيرًا جاء هذا اليوم.

فردت عليها جويرية التي أطلت علينا برأسها من المقعد الأمامي:

- أنا ما زلت غير قادرة على أن أصدق أننا سنعيش معًا في بيت واحد.

قال عمي رؤوف، والد جويرية، من مقعد السائق:

- لولا إني أثق بهيام ونسرين ماكنت سمحت لجيجي ولو حتى بالتفكير في الأمر.

عمي رؤوف كما كنا نناديه أو رؤوف باشا كما هو معروف بين الجميع، ضابط شرطة صعب المراس، وحازم مع الكل، وطيب جدًّا وفكاهي مع أسرته وأصدقائه.

فقالت له جويرية مداعبة:

- لا تقلق يا حضرة الضابط لن نتورط في المشاكل، أو ندخل أقسام شرطة متلبسين بالجريمة.

زمجر عمي رؤوف كإشارة تهديد مازحًا.

- سنكون بخير يا عمي، لا تقلق.

قلت ذلك وأنا أنظر للسيارة الأخرى التي استأجرتها أمي لتحمل حقائبنا الثقيلة.

كنت قد تجاهلتها في الفترة السابقة، وتجاهلتني بدورها رغم أنها بدت في كثير من الأحيان مريضة وحركتها بطيئة، وأحيانا تتكأ على المقاعد والجدران، لكني سألتها قبل أن أرحل بيوم:

- أمي، تبدين متعبة للغاية، هل استشرتِ دكتورًا.

- وماذا سأقول له، كبرت في السنِّ يا دكتور.

- أنتِ في السادسة والأربعين يا أمي!

فأشاحت بوجهها، وقالت:

- ولو، عمومًا أنا بخير، ذهبتُ إلى الدكتور ديفيد وقال إنني بحاجة لبعض الراحة، شكرًا على اهتمامك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أقل من ساعتين وصلنا إلى العنوان المقصود الذي استأجره لنا والد هيام، ودفع إيجاره والتأمين عليه من جيبه الخاص كهدية لابنته العزيزة التي رحمته أخيرًا من تذمر زوجته. كانت الشقة تقع في الطابق العاشر في واحد من العقارات المشيدة حديثًا بمنطقة كامب شيزار على البحر، والتي يصل عدد طوابقها لأربعة عشر طوابق وأكثر.

وقفنا نحن الثلاثة أمام باب الشقة مرتبكات زائغات كعصفور ترك عشه الدافئ، وعلى وشك أن يكتشف الحياة.

قال عمي رؤوف وهو يهز بالمفاتيح في يده:

- حانت اللحظة الحاسمة، ها، مَنْ منكن تريد أن تفتح الباب وتكون...

لم يكمل عبارته، إذْ قامت جويرية بجذب المفتاح من يده، وفتحت الباب، واندفعت إلى الداخل، ثم دخلت أنا ومن بعدي هيام وعمي رؤوف. كانت الشقة واسعة وفي غاية من النظافة والرقي، لها ثلاث غرف نوم، ومطبخ، وحمام، وصالة طويلة مصحوبة بشرفة تطل من جانبها الأيمن على بحر إسكندرية الهادئ نسبيًّا في ذلك الوقت من العام.

ومن هنا بدأت المتعة الحقيقية وحياتي لم تعرف هذا القدر من الانشراح والبهجة، وصار لي سنوات بها ذكريات حلوة لا يعكر صفوها سوى أمي.

فعلى عكس ما توقعت كانت قليلًا ما تتصل أو تسأل عن حالي، وعللْتُ الأمر وقتها بأنها لاتزال حانقة على قراري ولم تتقبل هزيمتها بعد. الغريب أكثر أنها كانت تميل للانزواء والصمت أثناء زيارتي القليلة المتباعدة لها، وقد تغيرت كثيرًا وباتت أكبر سنًّا وأشد ضعفًا تتكأ على الجدران والأثاث دائمًا ولا تخرج إلا للضرورة القصوى.

إلا أن دهشتي الكبرى حدثت في إجازة نصف العام الفائت بعدما طلبت مني بجمود ولامبالاة على الهاتف ألَّا أعود إلى القليوبية لقضاء الإجازة معها مثل كل المغتربين.

الأمر الذي كان له أسوء الأثر على نفسي وبذلت قصارى جهدي كي أخفيَ حزني وخيبتي عن الأنظار. فكان الخيار الوحيد أمامي هو البقاء بمفردي في شهر طوبة بين جدران شقة كامب شيزار.

إلا أن هيام اعترضت بشدة، وقالت:

- سأبقى معك، البقاء معك أفضل بكثير من رؤية زوجة أبي البومة.

فقالت جويرية:

- وأنا أيضًا سأبقى معكما.

فتدخلت قائلة:

- حسنًا، شكرًا لكما، غير أنني غير موافقة على هذا، فعلى هيام أن ترى والدها وأخويها وعلى جويرية أن ترى أسرتها التي تنتظر عودتها بفارغ الصبر، لا تخيبوا آمالهم أرجوكم.

وبعد حوار دام لساعات رضخت بفكرة أن ترحل جويرية إلى القليوبية وتبقى معي هيام، ثم تعود جويرية بعد أسبوع وترحل هيام الأسبوع الثاني، فرأيت نفسي أتعامل كطفلة بحاجة لجليسة أطفال، وللحق أحببت هذا الإحساس كثيرًا..

وأحببت أن أجد من يهتم لأمري اهتمامًا صافيًا خاليًا من الأوامر والقيود.

من الجيد أن يدغدغك هذا الشعور ولو لفترة قصيرة، ومع الأسف كانت أمي في نفس الوقت لا تجد من يهتم بأمرها أو يؤنس وحدتها وهي في أضعف أوقات حياتها، وآخر أيام حياتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[17]

حسام

إنّ ألمَ فقدِ شخص عزيز على قلبك يأخذ جزءًا من روحك ويخلق بداخلك شخصًا آخر، شخصًا أقوى أو أضعف.

بينما كان مؤنس وعزام يدققان النظر في الأوراق ويعيدان ترتيبها، كان قلبي وفكري مع نسرين التي لبثت وحيدة في الغرفة، كنت أعلم أنها تبكي وتتألم، وربما تندم على أشياء كثيرة حدثت في ذكريات قديمة. أسوء ما في الموت هو إحساسك بالعجز، فلا أنت قادر على إحياء الميت ولا أنت قادر على إصلاح أخطائك معه.

عندما علمت بمقتل زهرة قبل دقائق قليلة من رؤية نسرين أمام المستشفى والرجال خلفها، لم يكن الوقت متاحًا لأبكيَ وأتألم وأعلن الحداد وابنتها الوحيدة في خطر. لكني بكيت وتألمت وفقدت روحي كلها في يوم وفاة أبلة فتحية.

كانت أبلة فتحية بمثابة المعلمة والمربية في كل خطوة من حياتي. تأكل هكذا، تقرأ هكذا، تصلي وتصوم هكذا، وتفعل هذا، وذاك ممنوع.

وعلى الرغم من ملامحها الجافة والزغب الأبيض الذي يظهر حول فمها باستمرار، كنت مولعًا بالجلوس معها وسماع صوتها وهي تقص علي الحكايات، عن أجدادها وأهلها وطفولتها بأسوان أطيب المدن وأقدمها، مدينة التضحيات التي شهدت عمليات تهجير مستمرة بدأت عام 1902 حتى قرار بناء السد عام 1964، قالت إنها كانت صغيرة وقتذاك لكنها تذكر الحزن والألم الذي أدمى قلوبهم، ونواح أمها على ترك منزلهم الواسع وانتقالهم لبيت أصغر بكثير وغير مجهز، لكنهم لم يفقدوا ولو ذرة من انتمائهم وحبهم لوطنهم العزيز الغالي.

حدثتني أيضًا عن معالمهم الأثرية وعادتهم وتقاليدهم ونيل أسوان الرائق النقي الذي يحافظ عليه أهل أسوان كشيء مقدس وثمين.

ثم قالت أنها تزوجت من ابن عمها، فأهل أسوان والنوبة بالأخص غير مسموح لهم بالزواج من شخص غريب، والبنت منذ نعومة أظافرها محجوزة لابن عمها أو ابن خالتها والكل يعلم بهذا.

كان ابن عمها يعمل سائقًا على حافلة سياحية، وكان مخمورًا على الدوام، وينهال عليها بالضرب المبرح لسبب ومن دون سبب، لكنها أحبته على الرغم من كل هذا منذ أن كانت طفلة. ولم يخفَ عليها أنه كان مجبورًا على الزواج منها بأمر العائلة.

وذات يوم غابت فيه الشمس وحلقت الغربان في السماء، وصل لمسامعها صراخ وعويل يدوي في القرية بأكملها. وتم نشر الخبر في جريدة الأهرام قسم الحوادث على النحو التالي:

"قام حلاق بقتل زوجته وعشيقها في منزل الزوجية بجنوب أسوان، بعدما شاهدهما في وضع مُخل على سريره بغرفة النوم بعد عودته من العمل بشكل مفاجئ".

الأسوأ من الخيانة هو العار والخزي الذي يخلفه وراءه. عانت فتحية كثيرًا بعد موت زوجها بهذا الإثم الفظيع، ليس فقط لأنها امرأة خانها الرجل الذي أحبته وأخلصت لحبه، ولكن لأنها كانت زوجة لرجل عار على القرية كلها. ولم يتقدم أحد لخطبتها لأكثر من ثلاث سنوات، إلى أن تزوجت من عبد الله، رجل سوداني طيب بسذاجة، لم يسبق له الزواج ولكنه خرّ صريعًا أمام عينيها الدعجاوين.

لكن الحظ لم يبتسم لها كثيرًا كالعادة، واكتشفت أنها عاقر لاتلد، وأن على زوجها السوداني -كما تقتضي الأعراف- أن يكون له زوجة ثانية تمنحه ذرية تُبقي على اسمه لعشرات الأجيال من بعده.

سألتها بلهفة:

- وماذا فعلتِ؟

ضحكت بمرارة، وقالت:

- اخترت له عروسة مليحة، وزوجته بيدي، ومع أول طفل يحمله عبد الله بين ذراعيه نسي عينيّ الدعجاوين ونسيني بالكامل، بل واستثقل وجودي.

ثم أضافت أنها بعد فترة طلبت منه الطلاق، وكانت تعلم وهو يعلم وكل من يعرفهم يعلم أن الطلاق سيحدث عاجلًا أم آجلًا، ولكن لا أحد توقع أن تكون هي من تسعى إليه وليس الرجل، فجاءت الصدمة عميقة ومروعة ومثيرة للامتعاض من أهل القرية وأهلها على وجه الخصوص.

سألتها بعينين تتألقان من شدة الحماس:

- وهل حدث الطلاق؟

تثاءبت بنعاس مصطنع، وقالت:

- إن أردت معرفة بقية القصة ذاكر بجد، وكن من الأوائل على مدرستك.

كانت تلك هي لعبتها المثيرة، فإن وصل شغفي لما ترويه إلى حد الذروة تقطع السرد وتقول استذكر دروسك أولًا، أو صلِّ أولًا، أو أفعل هذا وذاك أولًا كمساومة خبيثة. وللحق أن لعبتها تلك كان لها أثرًا كبيرًا على حياتي.

أضافت بعد أن حصلتُ على المركز الرابع على مستوى المدرسة أنها تركت أسوان بعد الطلاق، وجاءت إلى القاهرة لتبحث عن عمل بشرط أن يكون له علاقة بتربية الأبناء.

- اشتغلت مربية لأطفال الأكابر والبهوات لسنوات طويلة، وبعدها في دار أيتام، وبعد أن شخت واستهلكت وصرت عظمة ثقيلة صادفت زهرة وجِئت معها إلى هنا. الله يسترها سترتني في آخر أيامي.

ابتسمت، وسألتها:

- ألم تفكري في الزواج مرة أخرى؟

- أبدًا، وما حاجة الرجل من امرأة ناضبة، جوفها خاوٍ.

بعمر الخمسة عشر عامًا شجعتني أبلة فتحية على العمل في الإجازة الصيفية، وقالت أن علم الإنسان وعمله هما حقيقته وهويته. أحببت ما تقول وقررت العمل في ورشة إصلاح السيارات الخاصة بالمعلم حسن مدفوعًا بحبي الدفين للسيارات من ناحية، ومن الناحية الأخرى كان المعلم رجلًا طيبًا كريمًا وحنونًا على أبنائه الأربعة دون تمييز. امتعضت خالة سُعدة من الفكرة، ورفضتها زهرة بلطف، في حين رحبت بها أبلة فتحية قائلة:

- نوع العمل لا يعيب الرجل، بل الخمول والكسل هم من يفعلون.

وعليه بدأت العمل كميكانيكي عند المعلم حسن الذي أحب نشاطي وشغفي في تعلم المهنة، وكنت أواصل العمل ليلًا ونهارًا، وتمضي الأيام والأسابيع والشهور فلا تنقصني عزيمة ولا يدركني الملل، فلم يبخل عليّ المعلم حسن بأي معلومة أو طلب.

ومع بداية عام 2017 لاحظت أن أبلة فتحية تعاني من شيءٍ ما، وأنها ليست على ما يرام، إذْ بدت شاردة طوال الوقت تحملق في الأشخاص والأشياء وكأنها ترى لأول مرة، ونسيت بضع مرات أن تعد الطعام أو توقظني من النوم، مما دفع قلبي للتفكير في عرضها على دكتور، لأن أبلة فتحية لم تنسَ قطُّ يومًا أن توقظني باكرًا بصوتها المجلجل وعزيمتها التي تضاهي، ولو كان صباح يوم عطلة.

وقد صدق حدسي لأنها توفيت بعد أقل من شهر في صمت وهدوء لا يتناسب مع شخصيتها الشكيمة ووجودها الصارخ.

أمام جثمانها المسجَّى على السرير، أجهشت في البكاء كما لم أجهش من قبل، وتذكرت يوم أمسكت بورقة بيضاء مطوية وطوت زواياها حتى أصبحت مربعًا ثم مثلثين ثم مستطيلًا، وبعدها تركت الزوايا كي تلتقي وجذبت المثلثين من الجانبين، فأصبح زورقًا. وقالت: لا ينجو من الدنيا إلا من كان ذا قوة في العقل وفي القلب وفي الروح وفي إرادة حرة يسندها النَّفَس الطويل، والدنيا بكل ما فيها عبارة عن زورق من الورق يتقاذفه الرياح والأقدار مثل هذا، ونحن جميعًا نعيش عليه. البعض منا يتحمل الصدمات، ويتمسك به لأطول فترة ممكنة، والبعض يرفض هشاشته وضعفه فيرحل عنه دون ذكرى أو بصمة، وبيديك يا ولدي الاختيار.

وها هي الآن ترحل عن الزورق بعد أن تركت بصمة في قلبي أبدًا لن تندثر، وستبقى امرأة عجزت عن منح الحياة لطفل فمنحت روحها وذكرياتها لي.

أمضيت بقية اليوم، هائمًا على وجهي، باكيًا بلا دموع، ومتألمًا بلا صوت. أركل الحجارة والقاذورات تحت قدمي، وكأنني أركل عجزي وهمِّي. وكل ماكنت أخشاه هو أن أعود إلى البيت ولا تؤنبني، أو أنام ولا تزعجني. نحن حقًّا لا ندرك قيمة الأشياء إلا بعد زوالها.

عندما دخلت البيت في وقت متأخر من الليل وجدت خالة سُعدة شاحبة الوجه منتفخة العينين، وبجوارها جلس مؤنس مطأطئ الرأس. أما عزام فكان ممددًا على سريره مغمضَ العينين.

سألتني خالة سُعدة فزعة:

- أين كنت؟

- احتجت لبعض الوقت وحدي، أنا بخير الآن.

فتقول بلطف:

- هل أنتَ جائع؟ أحضر لك العشاء؟

- لا، شكرًا لكِ.

الْتفتُّ إلى عزام، وقلت له:

- عزام أريد أن أستأجر غرفة رخيصة لأعيش فيها، وأحتاج لمساعدتك.

هب عزام من رقدته، ورفع مؤنس رأسه، وشهقت خالة سعدة، وحملق بي الكل بأفواه فاغرة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"اقترابي من الموت جعلني أفهم الحياة أكثر، أفهم روعتها، أفهم الجمال الساكن في غموضها".

أحمد خيري العمري

[18]
نسرين

شبرا بلولة - 2025

أوقفت سيل الذكريات، وقد اعتصر باطني بالألم، وانفلت بكائي.

خرجت من ذكرى سوداء لمستقبل أشد سوادًا في الوقت الذي تسللت فيه دوائر من الشمس عبر شيش النافذة المُغلق لترسم بقع مضيئة على السرير حيث جلست ساكنة والدموع تنساب مني دون إرادة.

سمعت صوت طرقٍ على الباب وصوت حسام يستأذن بالدخول، فأذنت له.

دخل وفي يده زجاجة ماء، ناولها لي، فتجرعت منها القليل.. وفي يده الأخرى قصاصة ورق لم أهتم بالسؤال عنها. أمسك حسام عن الكلام برهة، ثم قال متأثرًا:

- أعلم أنك تتألمين، ولكن علينا ألّا ندع موت زهرة يذهب هباءً.

أغمضت عيناي، ومسحت دموعي بأناملي، ثم نظرت إليه،

فاستأنف:

- الأمر لم ينتهِ بفشل المصل على المدى الطويل، فالحلف قرر استكمال التجارب على سكان المناطق الريفية الفقيرة في بلاد العالم الثالث من دون معرفتهم، ومتابعة حالتهم عن بُعد، والأسوأ من ذلك تجنيدهم واستخدامهم في الحروب كدرع واقٍ ضد رصاصات العدو.

اقترب مني ومد يده بالورقة، وتابع:

- هل هذا خط يدك؟

أخذت منه الورقة، وقرأت المكتوب فيها بدون صوت:

إلى حسام...

أرجوك سلّم تلك الملفات والأدلة إلى الإعلامي الشهير مارتن لوكين، سيأتي على متن الطائرة السويسرية في الثانية بعد ظهر يوم الأربعاء.

من أجل زهرة افعل هذا.

نسرين

تشوشت حواسي وقلت لحسام بتردد:

- نعم هذا خطِّي، لكن، أنا لا أفهم.

اقترب مني بعينين تشع حماسًا، وأردف:

- هذا هو ماذهبتِ من أجله إلى المطار يانسرين، كنت في انتظار مارتن لوكين ليستلم منك تلك الملفات، أعتقد أن ديفيد هو من أرسلك إليه وأعتقد أنه موثوق فيه لنأمل هذا. سأذهب أنا ومؤنس للبحث عنه في كل الفنادق، سنجده -إن شاء الله- وسينتهي الأمر.

نظرت إليه، وتأملت ملامحه في الضوء الخافت، ثم سألته ماكنت أنوي سؤاله منذ أن التقيت به:

- ماذا حدث معكما في ذلك اليوم؟

بدت الحيرة على ملامحه المُقطبة، فسألني:

- أي يوم؟!

قلت:

- على ظهر الصورة كتبَتْ أمي "شكرًا لك حسام على أسعد يوم في حياتي" فماذا حدث في ذلك اليوم؟

انتظر قليلًا، ولمحت لمعة في عينيه قبل أن يشيح بنظره عني ويبتسم، ثوان، وقال بنبرة متأثرة:

- أحضرتها إلى هنا، زهرة هي أول من رأت البيت والأرض وتعرفت على الأهالي، رحت أقول لهم مرارًا إنها أمي، كنت أعتبرها أمي حقًا وفخورًا بها. الشيخ سليمان نفسه هو من الْتقط لنا تلك الصورة، أظن أنه كان معجبًا بها كثيرًا.

ضحك حسام وأضاف: ولِمَ لا؟! كانت يومها جميلة مشرقة وحنونة كعادتها. طُفنا معًا في القرية وأنا أكاد أرقص فرحًا وأراها فخورة بي، وهذا كان كل ما تمنيته يومًا، أن أرى الفخر في عينيها، أن يقول لها العالم إنني كنت أستحق العناء، وأنها اختارت الصبي المناسب لتكون له أمًّا.

صمت حسام بعدها، وسقطت ببطء دمعة حزينة على جبينه حاول التمسك بها لآخر لحظة ممكنة.

لا أعرف حينها ما الذي آلمني أكثر! أن حسام أحب أمي أكثر مما فعلت، أم أن أسعد يوم في حياة أمي كان برفقة حسام.

أحسست بغصة ما قبل البكاء...

فجلست على طرف السرير، وتركت لدموعي العنان. بُوغت حسام من ردة فعلي تلك، وأظن أنه لام نفسه على كلامه، فجلس على ركبتيه أمامي في خشوع، ثم أمسك بيدي وضغط عليها برفق، نظر إلي، وقال:

- سنفضحهم، سيعلم العالم بجرائمهم وسنوقف خداعهم وينتهي كل شيء خلال أيام بإذن الله، وستكونين بخير، سنكون بخير.

حاولت أن أشاركه الأمل، بجهد حاولت، لكني فشلت.

فقط رفعت عيني، وتطلعت إليه كما لو كنت أراه لآخر مرة.. تمعنت النظر في عينيه وحاجبيه، في شعره النابت، في شفتيه وعنقه وكتفيه وصدره، وتمنيت لو أرتمي في أحضانه وأبوح له بكل ما أفكر فيه.

وما أشعر به.

لكني لم أفعل..

اغتصبت من نفسي المنهكة ابتسامة سريعة، لكن كل ما استطعت فعله هو رفع جوانب فمي ببلاهة، وتركته يرحل...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان النهار قد ضحى منذ زمن، وتردد في الأرجاء صدى أذان العشاء فقمت للصلاة، وبعد ساعة، بدا لي أن الحياة خارج بيت حسام كأنها سقطت في الصمت فجأة، وكل الناس نيام.

سكون مريب...

الحياة هنا أيضًا كانت مختلفة عن حياتي التي بِتُّ أراها ساذجة، وزائفة، ومشوشة.

بدأ هواء الليل البارد يتسلل إلى النافذة ويحدث صريرًا مزعجًا وكأنه رياح قطبية، وبدأ القلق يراودني بشأن غياب حسام ومؤنس الذي طال، فداهمتني رغبة ملحة لسماع صوت مسموع يبعث على قلبي ولو جزءًا من الطمأنينة.. مددت يدي إلى هاتف أمي وضغط الأزرار على الرقم الوحيد الذي أحفظه عن ظهر قلب، ورن الجرس..

- ألو...

جاهدت وأنا أحبس دموعي:

- هيام.. أنا نسرين.

هتفت هيام بلهفة:

- نسرين، حبيبتي، هل أنتِ بخير؟

فقدت السيطرة على نفسي معها، وانفجرت بالبكاء:

- أمي يا هيام.

شاركتني في البكاء، وقالت:

- أعلم حبيبتي أعلم، الكل يعلم، الله يرحمها، طمنيني عليكِ، أين أنتِ؟

هنا جاءني صوت جويرية يقول بحزم:

- نسرين حبيبتي، هل أنتِ في مكان آمن؟

- أظن هذا.

- جيد أبقى عندك مختفية عن الأنظار ولا تخبري أحد بمكانك مهما كان، تعلمين أن أبي رجل شرطة، وبعد مقتل زهر...

سكتت وابتلعت كلمة" زهرة" ثم استأنفت:

- بحث أبي عن الجاني لكنه وجد الأمر مريبًا ومحيرًا، وطلب مني أن أنصحك بضرورة البقاء في مكان آمن ومجهول، ومن الأفضل أن تتصلي بعد ذلك من هاتف شخص غريب ومن مكان بعيد أيضًا، يبدو أن الأمر خطير.

قلت بصوت مرتجف:

- أنا خائفة..

- لا تخافي حبيبتي، كل شيء سيكون على ما يرام.

أغلقنا المكالمة على الفور. حتى الصوت المألوف زادني فزعًا على فزع، فأردت أن أصرخ عاليًا، وأضرب رأسي بالجدار كي أستفيق من هذا الكابوس المروع، أو أموت وأرتاح من كل شيء.

في نهاية المطاف، لم أجد مفرًّا من الخروج إلى عزام وسؤاله عن حسام ومؤنس. آخر مرة خرجت من الغرفة للوضوء.. قال لي من دون أن يرفع بصره نحوي، ومن دون أن أسأله:

- حسام ومؤنس لا يزالان يبحثان عن لوكين في أكبر الفنادق..

هززت رأسي بصمت، وهرولت للغرفة كطفلة تهرب من متشرد مجنون.

كنت فظة، وقطعًا لم أقصد هذا.

وجدت عزام يجلس على الأرض متربعًا، مسندَ الظهر إلى الجدار. وقد بدا شاحبًا تحت الضوء الخافت، وعيونه منتفخة.. فهل كان يبكي! وعلى مَن؟! وهل من مثله يعرف البكاء! بهتني منظره، ورقَّ قلبي له، فاقتربت. جلست بجانبه صامتة بظهر مستقيم، ورحت أحدق مثله في سقف الغرفة، وقدماي أمامي ممدودتان.

من طرف عيني، لمحته يستل سيجارة ويشعلها، ثم أردف:

- ألا تخافين من البقاء معي وحدك؟

فكرت.. ثم قلت له بثقة بدون استهزاء:

- في الحقيقة لا.. ربما كنت كذلك من قبل، لأنني ظننتك رئيس عصابة خطيرًا مثل باقي فتوات السينما، مع أنك لا تبدو فتوة أبدًا.. كنت أحسب الفتوة أو رئيس العصابة رجلًا ضخمًا قويًا يمكنه دفن سبعة رجال بيد واحدة، أما أنتَ؟!

قاطعني بسخرية:

- يمكنك أنتِ دفني بيد واحدة.. الحقيقة أنا من يجب أن يخشى البقاء بجوارك بعد انتصارك غير المسبوق على مؤنس البدين.

ضحك فضحكت لضحكته، وللحفاظ على جو المرح سألته:

- لطالما أردت سؤال رئيس العصابة كيف أصبح رئيس عصابة، وهل الأمر يأتي بالدراسة أم بالخبرة؟

ضحك، قهقهة، وبدأ يسعل، وعندما انتهى السعال، قال:

- هذا أغرب سؤال سمعته بحياتي.. أظن أن الأمر يأتي بالإثنين، دراسة وخبرة، ورئيس العصابة أو الفتوة كان في الماضي وبلا شك أقوى رجل أما الآن فهو الأذكى.

قلت باستخفاف:

- وأنتَ الأذكى!

- على الأقل أنا أعرف مَن يؤذي الشرطة ومَن تؤذيها الشرطة وأقف بينهما حائلًا.

توقفت عن مسايرته، وقلت بجد:

- لماذا اخترت هذا الطريق يا عزام.. لماذا لم تغدُ طالبًا جامعيًا؟ مثل حسام أو مؤنس بعيدًا عن الدم والخوف والعنف.

تنهد في عذاب، وقال:

- أمثالي لا يختارون حياتهم، نحن نولد لنأكل ونعيش ونتقاتل، ولو كان المرء منا محظوظًا سيموت عجوزًا وحيدًا مهملًا. لذلك كل ما أردته في الحياة هو العائلة والأخوة، وزهرة قدمت لي هذا على طبق من ذهب، حسام شاب طيب لا تنجح علاقاته كثيرًا لأنه لا يعرف الخبث، لكن من يعرفه حقًا لن يتركه أبدًا، رمقني بنظرة جانبية، ثم أضاف: أما مؤنس ورغم ما تبديه شخصيته الجافة له قلب أبيض، وعينان تشبه اللسان تنطق بمشاعره وأفكاره.

سحب نفسًا من السيجارة، وأردف بعد أن استعاد مرحه:

- أكاد لا أصدق حتى الآن أنك تغلبت على مؤنس بدفعة واحدة.. لقد استهنت بقوتك للمرة الثانية يا فتاة.

نظرت له مستطلعة بدون فهم، وسألته:

- للمرة الثانية!

قال من دون أن ينظر نحوي:

- كنت طفلة صغيرة وقتذاك.

رفعت حاجباي في اندهاش، وسألته:

- هل تقابلنا من قبل؟

سحب نفس آخر من السيجارة، ونفث الدخان في الهواء، ونظراتي تحثه على الكلام:

- منذ زمن بعيد.. وقت كنا جيرانًا.

- جيران!!

- افترشتما أرض الرصيف بجواري لثلاثة أيام متتالية وهذا يجعلنا جيرانًا أليس كذلك؟ اختفيتما بعدها فجأة. وحزنت لرحيلكما دون وداع، لكن زهرة عادت وحدها، وأخذتني إلى بيت فى وسط البلد. قالت وقتذاك أنه رد للجميل مع أنني لم أفعل شيئًا يذكر.

نظر نحوي، ولما رأى عيوني الجاحظة وفمي الفاغر، ضحك، واستأنف:

- كانت زهرة امرأة تائهة ومشوشة من كل ما يحدث وكأنها غريبة عن العالم، وكانت تشحذ بدموعها وليس بصوتها، أما أنتِ فكنت مشاكسة وذكية للغاية، تأخذين المال من المارة بنظرة واحدة أو بضحكة بريئة، لكن الكل أدرك أن الشارع لا يليق بجوهرة مثلك.

غمغمت رغم إحساسي بصدق كلامه:

- أنت تمزح؟

- صدقي أو لا.. لك حرية الاختيار.

رددت بوهن وعقل مشتت:

- بعد كل ما سمعته اليوم علي أن أصدق أي شيء.

راح عزام يدخن بعمق أمام عيناي الذاهلتين.. ثم أسندت رأسي إلى الجدار، وقلت بمرارة:

- إذًا نحن الأربعة كنا يومًا أطفال شوارع بلا مأوى. يا له من ماضٍ مشرف.

- معذرة.. مؤنس كان أفضل منا في تلك النقطة.

- لا أفهم..

ضحك، وقال:

توفى والد مؤنس قبل أن يراه، ثم توفيت والدته بالسرطان وهو ابن ستة أعوام، ولم يبق له سوى جدته العجوز التي كانت أضعف وأفقر بكثير من تحمُّل مسئوليته. ولا أعرف من الذي عُثِر على مَن؟! لكن زهرة أخذتهم إلى بيت وسط البلد بعد عدة أيام فقط من إقامتي فيه بصحبة أبلة فتحية. لسنوات بعدها حاول مؤنس وجدته إخفاء صلة القرابة بينهما بقدر المستطاع كي لا يؤذيا مشاعرنا أنا وحسام، لكن الشبه بينهما كان يزداد يومًا بعد يوم وكأنها أمه وليست جدته.

هز رأسه ضاحكًا، وسحب نفسًا أخيرًا من السيجارة، ثم أكمل:

- مسكين مؤنس أراد أن يكون شكل ماضيه مثل ماضينا، مع أنه لو نام يومًا في الشارع، لو ذاق الذل ولعق التراب، وعاش من دون أهل ونسب لحمِد ربَّه وشكره كثيرًا. لكن لا أحد يعرف قيمة نفسه وماضيه حتى لو عرف أن كل قصص العالم أسوء منه.

قال عبارته الأخيرة بما يشبه الأسى، وقد اختفت لذعة السخرية في كلماته.

أطفأ السيجارة، وأشاح بوجهه بعيدًا، فيما بقيت أنظر نحوه بإشفاق. لما كنت طفلة صغيرة في السن سألت "تيتة زبيدة" عن رأيها في نظرية "الإنسان أصله قرد" للعالم الشهير داروين. كانت "تيتة زبيدة" قد بلغ منها الكبر أشد مبلغ وصارت شحيحة الكلام زائغة النظرات، لكنها اعتدلت في جلستها، وارتسم على ملامحها الجد الشديد وهي تقول:

- أنا لا أصدق هذا أبدًا، ولا أتخيل أجدادي قردة تقفز على الأشجار، فهذا التصور مُهين لجنسي، ويتنافى تمامًا مع كل الأديان السماوية وغير السماوية، لكن في قرارة نفسي أؤمن أن شخصية كل إنسان تشبه حيوانًا ما. فمثلًا هناك الوفي كالكلب، واللئيم كالثعلب، والشرس كالقط، والشجاع كالأسد وهناك أيضًا من يُضحك الناس كالقرد.. لكن الإنسان تعلم كيف يخفي شخصيته بحرفية ويخدع الناظرين على عكس الحيوان.

في تلك اللحظة رأيت عزام أشبه بحيوان القنفد، كائن صغير رقيق من الداخل اتخذ من الأشواك دثارًا له ليصد عنه الخطر. حزنت عليه كثيرًا، وتساءلت عن كم الأسرار والآلام التي يختزنها تحت هالة الشوك والنبذ المحيطة به.

جاءني صوته بعد هنيهة حزينًا ممزقًا:

- زهرة لم ترد إيذاءك أبدًا.. لو جربت الجوع والفقر والتعامل مع شياطين الإنس، وبين يديك طفلة صغيرة لا تستحق كل هذا لفعلتِ مثلما فعلت.

قلت له بصدق:

- أعرف.

حدق إليّ، بعينين دامعتين قبل أن يمسحهما بكم قميصه، ويشيح بنظره عني.

فجأة سمعنا صوت فرقعة تلاه صوت زجاج يتهشم في الغرفة الداخلية، ثم ضرب أحدهم باب البيت بعنف، ودفعه، فانشق نصفين.

انتفضنا، أنا وعزام، واقترب أحدنا من الآخر، وشعرت أن الدم تجمد في عروقي، وتقلصت معدتي..

إنها بداية النهاية، إنها بداية النهاية!

لم يكن باستطاعتنا فعل أي شيء سوى التحديق في الرجال وهم يدخلون علينا تباعًا، حتى أصبحت الغرفة غاصة برجال أشداء مختلفين في الشكل والملبس وكأن من كل بلد جاء رجل.

وقف عزام قبالتي، وأخرج مسدسًا صغيرًا من جيب سرواله، وراح يلوح به أمامهم.. رأيته يرتجف والعرق يتصبب منه بغزارة، فأدركت أننا هالكون لا محال.

قال رجل غليظ الملامح، فارع الطول، بلكنة صعيدية ثقيلة:

- لا داعي لاستخدام القوة.. فليس هناك مهرب هنا.

مددت أصابع يدي، ولمست كتف عزام:

- نحن محاصرون، أعتقد أنه يُحسن بنا أن نستسلم.

لحظات من التوتر والصمت مرت كدهر قبل أن ترتعش يد عزام وتسقط بجانبه تتأرجح، وسقط معها المسدس. رفعنا الراية البيضاء واستسلمنا دون مقاومة كما أرادوا، لكن الأمر لم ينتهِ.

اقترب منا ثلاثة رجال أشداء، أحدهم أبيض البشرة كالثلج والآخران سود كالفحم، أفارقة على الأرجح وقف أحدهما أمام عزام ولكمه في بطنه بقوة فارتمى على الأرض وهو يلهث محاولًا تنشق الهواء.

- اتركوه.. اتركوه. زعقت.

لكن الرجل الآخر طوقني بعنف، وسد فاهي بيده. نظرت إلى عزام فرأيته منكفئًا على وجهه، شاحبَ اللون مغلق العينين، ثم رأيت الرجل الأبيض يلتقط مسدس عزام من على الأرض بجواره، ويمرره إلى الأسود الذي لم يتريث لحظة وأطلق رصاصتين في رأس وصدر عزام.

نافورة الدم المنفجرة منه أصابتني بالصرع، فعضضت يد الرجل الذي يخنق صوتي، وأطلقت صرخة عالية بِاسْم عزام. لتكن تلك هي آخر كلمة نطقت بها قبل أن أشعر بالخدر يسرِي في جسدي من أثر حقنة مخدرة ضُخت في رقبتي، وفقدتُ الوعيَ بعدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[19]

حسام

طماع أنا في الحب! لسنوات طوال، وأنا أُملي نفسي برؤية نسرين ولو لثانية واحدة، والآن وبعد أن رأيتها وتحدثت إليها، بتُّ لا أطيق الابتعاد عنها ولو لثانية واحدة.. فكم أنا طماع، وعاشق إلى حد الثمالة.

عندما أوقف مؤنس السيارة أمام فندق لا يختلف كثيرًا عن الفنادق التي مررنا بها والتي من ذلك النوع الذي لا يقطنه سوى أصحاب الملايين. في مدخله تماثيل من الرخام الأبيض.. أما أرضيته اللامعة فكانت مفروشة بسجاجيد حمراء، ويتدلى من سقفه نجف ضخم من الكريستال البراق. وما بين نزولنا من السيارة ودخولنا الفندق لفحني هواء سأقع رطب أقشعر له بدني وتوجست بواطني فتمنيت في سِري أن نجد المدعو مارتن لوكين هذا ونجد عنده الحل.

وتوكلت على الله.

انشرحت أساريري عندما علمت من موظف الاستقبال أنه موجود بالفعل في الفندق، لكن كان علينا أن ننتظر نصف ساعة لينتهي لوكين من أمر ما، ويسمح لنا بمكالمته على الهاتف. وما كدت أن أقول على الهاتف إني قادم من طرف الدكتور ديفيد ونسرين حتى صرخ في أذني يرجوني بالصعود إلى غرفته لنتحدث على انفراد.

من صوته خمنت أنه رجل متعالي أو مجنون، لكن الحق أنه كان مزيج من الاثنين وفوقهم ثرثار متعدد اللغات والجنسيات.

استقبلنا لوكين بترحاب شديد في جناحه الفاخر، وبدا متلهفًا مهتمًا للغاية وهو يأخذ منا الأوراق والأدلة التي على حد قوله كافية لفضح المشروع وتدميره. من السفه أن تقدم مستندات في غاية السرية والخطورة لشخص معلوماتك عنه لا تتعدى أصابع الكف الواحد وكذلك نسبة ثقتك، لكن عندما يصطدم ظهرك بالحائط، ولا تعرف العدو من الحبيب فلا شيء أمامك سوى المغامرة.

سألته عن نسرين ومصيرها قال باللغة الإنجليزية ما معناه إنها ستعيش بأمان لأن الدكتور ديفيد قبل موته أوصاه بها، وأضاف أنها ستخرج من الصورة تمامًا إلى أن ينتهي من تدمير هذا المشروع، ويعود ومعه -بإذن الله- العلاج المناسب لحالتها.

قالها هكذا "بإذن الله".

كان مارتن لوكين رجل أوروبي بشوش، في بداية الخمسين من العمر على الأكثر، وله شعر طويل ناعم، وجسد رياضي نشيط. وفي المجمل بدا كرجل جرئ، صادق، يفي بوعده.. فاستبشرت خيرًا.

وسألته أكثر عن المشروع ومحتوى الأوراق الطبية.. ولحسن الحظ.. أنه إعلامي شغوف لا يعرف الصمت، وقال بفصاحة لسانه وإنجليزيته الدقيقة كل ما قاله مؤنس، وأضاف عليه أن الطبيعة الأم

غاضبة علينا، وأن التقدم التكنولوجي وملوثات الهواء رفعت من مستوى العداء إلى حد مخيف.

فكان على البشر الاختيار ما بين البقاء على الأرض حتى الموت أو الرحيل عنها قبل الخراب. وبدون تفكير اجتمع كل رؤساء دول العالم على الرحيل والبحث عن بديل للأرض في الفضاء الخارجي، ماعدا ثلاثة دول اتفقوا على البقاء والمقاومة.

أقاموا معًا مشروعًا سريًّا الهدف منه هو تقوية الجنس البشرى وتقوية مناعته.. ولأجل هذا كان يتم تجنيد النابغين بالسلاح، وخطف الرُّضع من أحضان أمهاتهم، وقتل الفاشلين والأغبياء منهم في تجارب المشروع الأولية.

وبعد مئات ومئات من التجارب والمذابح والخيبات استطاع عالم واحد -ممن تربى في كنفهم- اختراع مصل يقوي العظام إلى حد يصعب اختراقها سواء بالطرق التقليدية أو بالأسلحة الأكثر فتكًا، ومن هنا تغير الهدف الأساسي من المشروع ليتحول هذا المصل لسلاح مدمر ليس ضد الطبيعة، التي لم ولن تقهر، وإنما ضد الجنس البشري غير المرغوب فيه، وبعدها سيتم تقسيم الأرض بينهم بعدل وحكمة إلى أن ترضى عنهم الطبيعة وتتركهم يحكموها بسلام.

هز لوكين رأسه مشمئزًا، وأضاف:

- حالة زهرة مثل كثير من الحالات التي أثبتت أن المصل سيفشل على المدى البعيد، وأنه سيتسبب في إبادة الجنس البشري وليس تقويته.. وتوقع الدكتور ديفيد أن التجربة فشلت وأن المشروع سيتوقف أخيرًا. لكن هذا لم يحدث. وفوجئ ديفيد بالحلف يعلن عن بدء المرحلة الثانية من المشروع وهي استعمال المصل وحقن مئات الآلاف من المتطوعين والمجندين واستغلالهم في الحروب.

سألته مندهشًا:

- ومن أين لهم بكل هذا العدد؟

فرد ببساطة:

- أظن أن هناك الكثير من الدول التي لديها أرض خصبة وصالحة لاستخدام وسائلهم الرخيصة عليها، من خداع وكذب، وتمويل، وتهديد، وعلاجات زائفة.

قاطعه مؤنس في حيرة:

- ولماذا سيقبل كل هؤلاء بالدخول في مذابح بشرية ومعارك لصالح قاتليهم.

صمت لوكين قليلًا في تأثر، ثم أردف:

- لو وضع أحدهم بداخلك الداء وقال أن معه الدواء، فقطعًا ستنفذ كل ما يطلبه منك، حتى وإن طلب منك قتل أخيك.

- هذا التفكير مقرف.

هز لوكين رأسه مؤيدًا، وقال:

- هذا التفكير جزء من حياتهم.

وتودعنا، وقد أثقلنا موازينه بأوراق ستغير من خريطة العالم والتاريخ في الأيام والسنوات المقبلة، لكن في تلك اللحظة لم يكن الأمر يعنيني في شيء، وعدت هانئًا مطمئنًا أفكر في لحظة لقائي بنسرين. وتمنيت لو كان لي أجنحة أطير بها فوق السحاب لأصل إليها بأقصى سرعة، وأزف لها تلك الأخبار السعيدة، وربما عندما تهدأ الأمور أصارحها بكل ما يتفجر في قلبي من ينابيع العشق، ثم أعرض عليها الزواج لنعيش معًا تحت سقف بيت أحلامي لتكتمل الصورة التي تخيلتها في رأسي منذ زمن بعيد.

لكن عوضًا عن هذا وجدت نفسي أمام كابوس مروع لم ولن أستيقظ منه ما حييت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الليل قد انتصف وقت عودتي إلى القرية، ومع ذلك كانت الحركة تدب في كل مكان ومعها الأضواء والأصوات وكأنها ساعة ظهيرة. انقبض صدري منذرًا بالشؤم، فهرعت نحو البيت غير عابئ بنظرات المحيطين وعدم قدرة مؤنس على مجاراتي في الركض. وعندما بلغت فوجئت أمام باب البيت بعدد غفير من الأهالي ومعهم سيارة إسعاف ورجال شرطة. كفّ المتحدثون عن الثرثرة والباحثون عن التساؤل وأوسعوا لي الطريق، فدخلت بخُطى مترددة وقلب يكاد يخرج من بين ضلوعي، إلى أن رأيته! ممددًا تحت ملاءة بيضاء تحول لونها إلى الأسود بسبب الدماء التي انتشرت في كل مكان وغيرت رائحة البيت. وعرفت من دون أن أرفع الملاءة أن القتيل وبلا شك كان عزام.

ومن دون إرادة.. صدقًا من دون إرادة بحثت عيناي على نسرين كطفل يبحث عن أمه، وكرهت نفسي لأنني أحسست بالارتياح لأنه لا أثر لها، وهناك أمل ولو ضئيل في أنها لاتزال على قيد الحياة.

وصل مؤنس خلف ظهري لاهثًا، وارتمى بجانب جثة عزام غارقًا في بكاء مرير يدمي القلوب والأعين، فيما بقيت أنا أقف فوقه متيبسًا كتمثال، وقد غبت عمّن حولي، وانسحبت مني الروح ولم أستطع الحركة.

من الكلام المتداول حولي عرفت أن القرية استيقظت على صوت مريب، ففُتحت النوافذ وأطلت الرؤوس، وسرعان ما اتجه الرجال إلى مصدر الصوت، حيث تجمهر عدد غير قليل أمام بيتي، وكثر بينهم التساؤل والتوجس. خرج عليهم رجل صعيدي غليظ الملامح والصوت، وقال بتبجح أنهم يغسلون عارهم من الفاجرة وعشيقها، ثم مر أمامهم مع رجاله وفتاة -كانت نسرين- فاقدة للوعي محملة على سواعدهم.

تناهى إلى سمعي صوت الشيخ سليمان وهو يقول لضابط الشرطة إنها قضية شرف بعيدة عن أهل القرية وليس لهم دخل فيها.

وتدخل في الحوار رجل نحيل متلهف النظرات بقوله:

- نعم، يا باشا، أهل البنت أخذوها وقتلوا الفاجر ابن الفاجرة.

لحظات لم أشعر بنفسي إلا وأنا أطبق بثقلي على رقبته، وأتطاول عليه بأفظع الشتائم والسباب إلى أن شعرت بلكمة قوية تخترق جسدي من أمين شرطة لم أتبين ملامحه.

وفي القِسم، تركت الكلام لمؤنس.. بينما لبثت صامتًا، مكتفيًا بالاستماع دون إصغاء، شارد الذهن ومشتت الروح. مر ببالي أن أحكي لضابط الشرطة كل شيء أو أتصل بـ"لوكين" وأطلب منه المساعدة، لكن صرفت النظر عن هذا، وتركت التحقيق يأخذ مجراه كما تقول أفلام السينما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"في وحشة سجنك ترى أحبابك أكثر، لأن في الوقت متسع، ولأنهم يأتونك حدبًا عليك في محنتك، ويتركون لك أن تتملى وجوههم ما شئت، وإن طال تأملك".

رضوى عاشور

[20]
نسرين

المكان: غير معلوم

الوقت: لا وقت هنا

عدت للوعي وشعرت بألم حاد يجتاح كل جسدي مسحوبًا بسلسلة من أنّات خافتة تصدر عن فمي بتلقائية.

لم أكن أدري أين أنا! وجدتني ممددة على سرير أبيض في غرفة واسعة، عالية السقف لا نوافذ لها. وكانت جدرانها مغطاة بالخزف الأبيض اللامع، والأضواء تغمر المكان وتكشف عن كل شيء. كما كان هناك طنين مستمر يخرج من أجهزة العناية الطبية المركزة بدقة المحيطة بي والموصولة بكل أنحاء جسدي، وفي ذراعي طرف أنبوب دقيق موصل بكيس شفاف فيه سائل شفاف.

كنت شبه عارية في ملابسي الداخلية فقط، والأحزمة العريضة البلاستيكية تحيط بي وتثبتني بإحكام في السرير العالي.

انتفضت مذعورة، ورحت أتصارع مع الأحزمة والهواء، وكل ماكنت أفكر فيه في تلك اللحظة هو "ليس مجددًا، ليس مجددًا، ليس مجددًا". يبدو أن الشيء المؤلم الذي يحدث لنا في الماضي يظل رفيق أفكارنا ولا يتخلى عنا..

شعرت بوجع قاتل ينخر في عظامي كلها وحلقي جاف، ناديت النجدة ورحت أصرخ بجنون، ولكن لا حياة لمن تنادي.

فكرت في حسام وعزام وأمي فأطلقت صرخة عالية، وتركت العنان لدموعي حتى استسلمت لحالي وسكنت تمامًا..

ولما طال الانتظار، قدرت أنهم يراقبونني من حيث لا أرى، وتساءلت في سري عن المصير الذي ينتظرني، وإن كان ثمة اختيار بين الحياة هنا أم الموت في الخارج فأيهما سأختار!!

بعد ساعة أو ربما أكثر. دخل رجل مسن مستقيم العود، تتبعه شابة سمراء غامقة السمرة، غليظة القسمات، ضيقة العينين. وكلاهما يلبس رداءً أبيض طويلًا ونظارة طبية وقناعًا من الورق الأبيض.

عندما اقترب الرجل العجوز بما يكفي وخلع القناع، تعرفت عليه في الحال، ذلك لأنه هو ذاته الرجل الأشقر قبيح الأنف الذي التقيت به قبل ثلاثة عشر عامًا. وقد بدا أكبر سنًّا، واستولت التجاعيد على ملامح وجهه حتى بات كورقة رديئة مهملة. تجمد الدم في عروقي، وكل ما جال بخاطري أن الموت أهون علي من الشعور بذاك الألم مرة أخرى. سمعت قبيح الأنف يقول لي في كياسة بلهجة إنجليزية غريبة.. ما ترجمته:

- كيف حالك يا صغيرتي؟ مرّ وقت طويل على لقائنا.

رمقته بازدراء، فاستأنف:

- حسنًا.. لدي لك أخبار سارة.. قمنا ببعض الفحوصات، وتأكدنا من حالتك الصحية والبدنية فوق الممتازة.. فأنتِ ستصبحين بقوة ثلاثة رجال، ألا يستحق الأمر العناء؟

قلت بغضب عارم:

- أنا سأموت قريبًا، فهل الموت برأيك يستحق كل هذا العناء؟

- الموت لصالح العلم والبشرية شرف ووسام.

زعقت فيه:

- إن كان كذلك حقًّا.. فلما لا تموت أنتَ؟

ابتسم في خبث، وأردف:

- أنا قضيت عمري كله في اختراع وتطوير مصل القوة ألَا يعد هذا أشبه بالموت البطيء؟ لكني لست أنانيًّا مثلك فأنا سعيد جدًّا بتضحيتي.

تذكرت الباحث الشاب الذي اخترع المصل في كلام مؤنس السابق، وأدركت أنه كان يتحدث عن قبيح الأنف هذا، فرمقته بازدراء أكثر، وأردفت:

- قضيت عمرك في اختراع سلاح سيدمر البشرية، ويتسبب في حروب ومجازر.

- لا يهم ما دمنا نحن من سينتصر في النهاية.

قلت له بذهول:

- ستتسبب في قتل ملايين الأبرياء..

- بعض الشعوب عليها أن تدفع ثمن أحلام الشعوب الأخرى.

- أنت شيطان.

- نادني بـ"جو" فنحن أصدقاء الآن.

قالها بسخرية ثم استدار مبتعدًا. ظننت أنه سيخرج ويدعني أرتاح من صوته ورائحته العطنة، ولكن عوضًا عن هذا سمعته يقول:

- لم يكن قتلها مقصود.

- ماذا؟

اقترب مني بابتسامة تجعله أشبه بامرأة متنمرة منه برجل قاسي القلب، ثم أردف بإفاضة وتلذذ:

- زهرة.. لم نكن نقصد إيذاءها قط.. كنا سنأخذك وحدك ونتركها تعيش ما تبقى من أيام عمرها في سلام.. لكنها وقفت أمامنا كثور هائج، وراحت تصرخ، وتستغيث، وتطلق النارعلى الجميع.. كانت جميلة وغبية جدًّا.. فطلقة واحدة في رأسها الجميل أخرستها للأبد. طبعًا تضحيتها السخيفة تلك منحتك الوقت للهرب، لكننا كنا سنعثر عليك عاجلًا أم أجلًا، وهي كانت تعلم هذا.. لكنها كما قلت لك: امرأة غبية.

غبية! لم يسبق لأحد أن وصفها بالغبية من قبل فاخترقتني الكلمة كنصل سكين جارح..

أغبية لأنها خشيت على ابنتها من التشرد والوحل؟!

أغبية لأنها وثقت في مرتزقة لا يستحقون لقب بشر؟!

أم غبية لأنها على عكس طبيعتهم أرادت أن تعيش مع ابنتها في سلام؟!

انخرطتُ في نحيب ارتج له كل جسدي. مد قبيح الأنف أو جو أصابع يده ليمسح دموعي كرجل نبيل، فأشحت وجهي إلى الجانب الآخر، وحاولت الحفاظ على رباطة جأشي بقدر المستطاع.

وتمنيت لو يصمت.

لو يخرج ويتركني بجهلي.

لكنه لم يفعل.. وأراد أن يتلذذ بإيلامي إلى أبعد حد..

ما أحزنني، ولم أتوقعه قط هو أن تلجأ زهرة إلى ديفيد، إلى أكثر شخص لم أتوقع منه الخيانة قط.. فهو صديق عمري ورفيقي في المشروع منذ بدايته، واعتقدت أن الأمر مهم له كما هو مهم لي. أظن أن موت زهرة أفقده عقله.. هذا ما يحدث للذئب إن وقع في حب الشاه.. من حقير الذوق وقذر.

تغيرت نبرة صوته شيئًا فشيئًا وبان في عينيه الغضب الشديد وهو يضيف:

- تخيلي أنه وبكل سذاجة أخبركما بكل شيء يتعلق بالحلف والمصل وخطط المستقبل. الحقير الجبان رغم أنني انتقمت منه وقتلته بست رصاصات في رأسه البليد لازلت غاضبًا منه ومجروحًا.. إنها الخيانة يا صديقتي العزيزة تقتلنا، ومهما فعلنا لا ننساها

حدست أن ديفيد لم يخبره بأمر الحقيبة وأمر مارتن لوكين ليمنح نفسه فرصة أخيرة للتكفير، ولأتأكد من حدسي جمعت صوتي، وسألته:

- كيف توصلتم إلى مكاني؟

- مع أن الأمر غير مهم الآن لكني سأرضي فضولك.. أخبرنا ديفيد برقم هاتفك أو هاتف زهرة الذي كان معك.. ومنه تتبعنا الرقم حتى وجدناه في بالوعة نتنة. أحد رجال عزام وشَى به وقال إنكما في مطار القاهرة فذهبنا إلى هناك، ثم اختفيتما ثانية في حي السيدة زينب.

مطَّ شفتيه، ثم استدرك:

- كان من الممكن ألا نعثر عليك أبدًا بعدها لولا اتصالك الجميل بهيام في الإسكندرية.. فهل كنت تعتقدين أننا كنا سنتركك تعيشين بصحبتهما بدون رقابة يا صغيرتي المدللة؟

مال نحوي، وقال:

- شكرًا على هذا الاتصال فبسببه أنتِ هنا... آه.. بالمناسبة آسف جدًّا على خسارتك، لو لم تفعل أمك ما فعلته، ولو لم يهجم بعض الحثالة على رجالي في مدينة نصر لكان صديقك الآن على قيد الحياة.. ولكن ماذا سنفعل يا عزيزتي؟ أنتم شعب قذر.

قلت في جنون وازدراء هادر:

- أفضل منك ومن أمثالك.

ضحك، وفي تلك المرة استدار ورحل. وتركني بقلب ممزق نازف، وعقل لا يكف عن الدوران.

في الساعات الطويلة المقبلة.. سأقوم بربط الأحداث وإعادة تكوين ذكرياتي من الصفر.. بدءًا من يوم الحقن الذي أخذتني إليه أمي بعد سلسلة طويلة من الوعود والضمانات خوفًا علي من الفقر والتشرد والضياع..

تجاهلها الدائم عن الثرثرة والاختباء خلف قناع الأم الجافة المسيطرة لحجب الأسرار..

عنايتها بثلاثة أطفال مساكين للتكفير عن ذنبها..

وصولًا إلى يوم الثلاثاء المشؤوم. فوفقًا لما سمعته اتصلت أمي قرب الفجر، وطلبت مني العودة إلى القليوبية، وهناك أخبرتني بكل شيء.

أتخيل نفسي ثائرة مشوشة أُلقي عليها الاتهامات بقسوة، وهي تبكي وتتوسل بالغفران قبل أن تمد يدها بالهاتف الذي منه اتصلت بديفيد وحسام.. ثم وقفت بشجاعة في وجه جو ورجاله لتحميني حتى آخر يوم في عمرها.

ذهبتُ بعدها إلى القاهرة، واتصلت بديفيد، وأخبرته بموت أمي فأخبرني بدوره عن أعمق الأسرار، وطلب مني الذهاب إلى المطار لمقابلة المدعو مارتن لوكين وتسليمه الملفات والأدلة ليفضح جرائمهم. بعد ذلك، ذهبت إلى المطار وانتظرت، وعندما استشعرت بالخطر يحوم حولي، أودعت الملفات في خزنة بالمطار، ووليت هاربة.

وكآخر ملجأ وجدت نفسي أتصل بحسام، وأقول له عن الحقيبة وخزنة المطار وقبل أن أقول له عن الرقم السري باغتني رجل قوي من الخلف، وضخ المخدر في عنقي لأتهاوى على الأرض، وترتطم رأسي بحافة الرصيف، وأغيب عن الوعي وعن كل ما عرفته في أربع وعشرين ساعة.

عندما انتهيت من ربط الأحداث. وللمرة الأولى في حياتي، خيل لي أن المرأة التي أنجبتني، التي كانت معي يوم المصنع، التي تمردت عليها بعد ذلك لسنوات، قد تكون امرأة مختلفة من الداخل. امرأة ليست أنانية ومتسلطة كما كنت أراها، بل مهزوزة ضعيفة كانت بحاجة إلي أكثر مما كنت بحاجة إليها.

آلمتني الحقيقة أكثر، فأجهشتَ بالبكاء الحار. فكرت في الصلاة، وبسبب قيودي وقلة حيلتي رحت أحرك رأسي للأمام وللخلف ولليمين ولليسار، ودموعي ولساني يندفعان بكل ما يجيش في صدري من آلام وأثقال لم يعد بوسعي حملها.

"اللهم ارحم عزام واغفر له".

"اللهم احفظ حسام واكتب له حياة مديدة تملؤها السعادة والصحة وراحة البال".

"اللهم اغفر لأمي وارحمها وأكرمها ونوّر قبرها".

سامحيني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[21]

حسام

"لا أحد يختار الحياة أو الموت، ولكن إن كان ثمة اختيار في لحظة ما، فحتما سأختار أن أحيا، من أجل أولئك القليلين الذين يستحقون الحياة لأجلهم، من أجل الواجبات التي عليّ أن أؤديها قبل أن أرحل، ومن أجل الذكريات الحلوة التي وإن كانت قليلة الآن فأطمح أن تزيد في المستقبل".

تذكرت كلمات عزام هذه وأنا أجلس القرفصاء في أحد أركان زنزانة باردة تعجُّ بوجوه قبيحة، وروائح نتنة هي مزيج من بول وعرق وأنفاس ثقيلة. دنا نحوي رجُلانِ من نزلاء الزنزانة يبحثان عن مصدر رزق في جيوبي، ولما وجدوني أشبه بجثة على وشك التعفن تركوني بعذابي.

هناك نوعان من البشر: نوع يضحي بنفسه لأجل أحبابه، ونوع يضحي بأحبابه لأجل نفسه. عزام كان من النوع الذي يضحي بكل شيء ولو كانت روحه دون أن ينتظر المقابل.

من لحظة دخلت بيت زهرة، وفتحية تعاملني كابْن لها أو حفيد لم تحظَ به أبدًا، وكذلك كانت خالة سُعدة تعامل مؤنس لأنها -ورغم محاولتها المستميتة لتخفي ذلك- جدته الحقيقية. أما عزام فكان يشعر في قرارة نفسه أنه ضيف علينا يحق له واجب الزيارة والاهتمام ويومًا ما سيرحل دون شك. الشيء الوحيد الذي خفف من وطأة هذا الشعور على قلبه كان حب زهرة الذي يتوزع علينا نحن الثلاثة بالتساوي، فيطير به فرحًا، ويمضي إلى النوم سعيدًا مبتسمًا وراضيًا.

كان عزام ورغم جهده المضني في التعلم والمسايرة بطيءَ الفهم، بليدًا، يستلزم وقتًا طويلًا لشرح وعمل الفروض المدرسية، ومع ذلك كان بارعًا في العمليات الحسابية على نحو غريب، لكن هذا لم يشفع له للنجاح في الامتحانات السنوية، فتُبديان فتحية وسُعدة استياءهن، ويتحسرن على مجهوداتهن ووقتهن المهدور.

وذات مرة شاهدنا فيلم "بداية ونهاية" للكاتب المصري نجيب محفوظ على التلفاز، وفي الفيلم كان الأخ الأكبر يضحي دومًا من أجل أخيه الأصغر، ويتحوّل إلى شقي فاسد، لينقذهم من الفقر والجوع، ويمنحهم مستقبلًا أفضل من مستقبله. ويبدو أن عزام تأثر بالفيلم إلى حد تنفيذه.

لانعرف بالتحديد إن كان عاد إلى أصدقاء الماضي أم تعرف على أصدقاء جدد من المتشردين والمتسولين والمهملين نفسيًّا واجتماعيًّا، لكنه اندمج بينهم وبدأ يتغيب عن المدرسة ويهرب من البيت لأيام ثم يعود ويبقى أيامًا وكأن شيئًا لم يحدث. الغريب أن فتحية وسُعدة كانتا في البدء ينهالان عليه بوابل من التأنيب والتذمر ثم توقفتا، ومؤنس بدوره حذا حذوهما وأخذ ينصحه ويوبخه على خيانته لعهد الأخوة ثم توقف. ولم يعد أحد ينهره أو يعنفه على غيابه سواي، وكان يرد في كل مرة:

- لا تشغل بالك.. أنا بخير.. أنا في مكاني الطبيعي.

زهرة بدورها كانت تعاتبه بنبرة هادئة كأم تعاتب ابنًا رفض تناول طعامه، وفي النهاية كانت تقول:

- عزام أنت تعلم أن هذا بيتك ومُرحب بك في أي وقت.

فيرد باقتضاب:

- أعلم.

أخبرني عزام وهو ينفث دخان السيجارة في الهواء -عادة أخرى اكتسبها مؤخرًا- أنه فرد من جماعة تقوم ببعض المهام الخاصة برجال الأعمال.

- أعمال من أي نوع؟

قال من دون أن يرفع بصره عن قط أسود يلهو تحت قدميه:

- كل ما يطلبونه.

قلت منزعجًا:

- هل الأمر خطير؟

فسأل:

- خطير على مَن؟

- عليك ياعزام.. فأنا لا أهتم بأحد غيرك.

فهمهم بنبرة واضحة:

- اطمئن يا أخي.. أنا لا أؤذي إلا من أراد أن يؤذي نفسه.

ألقى بالسيجارة على الأرض، وداس عليها بقدميه، ثم رفع رأسه إلى السماء، وشرد طويلًا. كان قلبي وقتذاك يعتمر بالكثير من الأسئلة والفضول، ولكني تمنيت ألّا أعرف الإجابة عنها. فالْتزمت بالصمت وحاولت مع الوقت التعامل مثل الآخرين، وكأن شيئًا لا يحدث.

كنت أعلم من أعماقي أنه يضحي بنفسه ليمنحنا وقتًا أطول في التعلم ومساحة أكبر من الاهتمام، وكذلك عَلِم مؤنس وفتحية وسُعدة وحتى زهرة، فضحتنا النظرات والإيماءات والتجاهل عن الحديث في الأمر، فكنا معًا أشبه بعصابة سرية لا تقل قسوة عن العصابة التي انضم لها عزام، لكننا نبذناه لنعيش، وهم احتضنوه ليعيش.. وربما لهذا السبب لم نشعر، أنا أو مؤنس، أننا أفضل منه في شيء، بل بالعكس بقي في نظرنا أخانا الأكبر ومستشارنا الأعلى في كل شيء، لعلنا بتلك الطريقة نتحرر يومًا من عقدة الندم التي لم ولن نتخلص منها أبدًا.

انهمرت الدموع على وجهي، وأردت أنْ أصفعَ وجهي أو أشدَّ شعري، لكني كالعادة جبان، خشيت من أن يقول عني نزلاء الزنزانة إنني مجنون وأكون مدعاة لسخريتهم وتهكمهم وهذا آخر ماكنت أحتاجه.

أحبس أنفاسي وأصيخ السمع. الشخير والأنين والتأوه والتذمر فمن أين سيأتي النوم؟ مع أن النوم هو خلاص السجين، أما اليقظة فهي النار التي يجتر فيها الذكريات فيحترق ألف مرة. لم أفلت من الماضي كما كنت أظن، وظل دائمًا يفسد علي بهجتي وذكرياتي، فهو وإن بدا لنا عكس ذلك هو المسئول الأول عن أفكارنا وأحلامنا.

كنت سجين أربعة جدران، وماضٍ مُعذب، ومصير مجهول، وحب ضائع، وصديق في ثلاجة الموتى ينتظر أمر الدفن. فأي أمل كنت سأتشبث به؟ وأي نجاة انتظرها في المستقبل؟

وماكنت أدرى وقتها أن مارتن لوكين بالخارج أقام الدنيا فوق رؤوس الحلف ودحرجها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"إن الموت يمثل أملًا حقيقيًّا في حياة الإنسان".

نجيب محفوظ

[22]

نسرين

بعد ساعات طويلة من الابتهال في الصمت البارد، دخل جو بصحبه ثلاثة رجال وامرأة شمطاء، وقد تسلطت أعينهم بشغف على جسدي، وشعرت بنظراتهم تُدنسني.. وكوسيلة للهروب أغمضت عيناي وتخيلت نفسي في أي مكان من اختياري، بصحبة أمي أمام التلفاز مثلًا، أو مع حسام وسط مساحات خضراء مرصعة بأشجار الياسمين، يتدلى من أغصانها زهرة بيضاء تتلألأ وتزداد بياضًا مع أشعة الشمس المنعكسة عليها.

"نسرين" التفتُّ إلى مصدر الصوت ورأيت حسام يفترش ملاءة بيضاء على الأرض العشبية، ويداعب طفلًا بعمر سبع سنوات له عنق وكتفان مائلتان كحسام، وبشرة بلون البرونز وأنف دقيق مثلي.

وبالجوار رأيتُ طفلة بعمر خمس سنوات، كانت مُنهمكة في أكل حبة فراولة، وكان لها وجنتان بارزتان وعيون خضراء كحسام، وشفاة رقيقة مع شعر بني طويل.

صدقتِ يا أمي.. ليت النهايات السعيدة التي تحدث في الأفلام تحدث معنا في الواقع. عضضت على شفتي وتركتُ رغمًا عني دمعة ساخنة تنساب على خدي في صمت.

عندما تناهى إلى سمعي صوت أقدام جو ورفاقه تبتعد.. فتحت عيناي ورأيتهم يخرجون تباعًا، وبدلًا منهم دخل رجل فارع الطول، يرتدي بدلة سوداء على غرار الرجل الحديدي، وعلى رأسه خوذة وقناع فولاذي. تقلص وجهي فزعًا وشعرت بأنّ شيئًا مريبًا سيحدث!

وقد صدق حدسي.

ففي اللحظة الموالية أخرج الرجل مسدسًا، وأطلق رصاصة على ساقي تحت ركبتي بقليل دون تريث. أحسست بوخزة قوية، ولمحت الرصاصة ترتد وتغير اتجاهها بعد اصطدامها بي مستهدفة إحدى الأجهزة الطبية التي أصدرت صوتًا وشرارة عالية.

صرخت، وأنا أشعر بتنميل قوي في ساقي.. نظرت إلى الأسفل إلى موضع الرصاصة.. كان ثمّة ثقب صغير أسفل ركبتي اليسرى ينزل منه خيط دم، وعندما فحصه جو بعد برهة مع الشمطاء والرجال الثلاثة، سمعته يقول بزهو ما ترجمته:

- أرأيتم العظام سليمة تمامًا، ولا يوجد بها إلا خدش بسيط.. الرصاص العادي لا يخترق تلك العظام، فيبدو للناظر وكأنه رصاص من الخرز يجرح خلايا الجلد ولا يؤذي العظام.

وما لبث أن أخرج بدوره مسدسًا فضيَّ اللون غريبَ الشكل! أكبر من مسدس الرجل الحديدي بكثير، وله ماسورة طويلة، ومقبض أسود اللون..

انقبض قلبي بجنون وحاولت التحرر، ولكن أطرافي كانت مقيدة بإحكام بحيث تجعل من المقاومة حلمًا.. ومن الأماني عبثًا.. فأطلقت صرخة عالية هي كل ما استطعت فعله.

تردد صوت الزناد المعدني في الأرجاء ودوّى معه صوت مرعب، وشعرت معه كما لو قطعة جمر اخترقت فخذي، وصرخت زاعقة بكل ما فيّ من وجع ومن خوف.

تشوشت حواسي بعد ذلك، وبدأت تتراقص أمامي بقع سوداء وبيضاء، وسرعان ما غبت عن الوعي وعن الكون بكل ما فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتحت عيني من جديد ولم أكن أشعر بالألم! ورأيت حسام يجلس بجانبي على السرير، رفعت نظري إليه وتطلعت إلى وجه.. كان يبتسم، وبدا وجه عمومًا مرتاحًا وراضيًا. اقترب مني إلى أن صار وجهه على بُعد سنتيمترات من وجهي، وأردف:

- هل تشعرين بألم؟

هززت رأسي بالنفي وتعلقت عيني بعينيه، كان فيهما سعادة مشوبة بالقلق.. مد أصابعه برفق، وأزاح خصلات شعري بعيدًا عن صدغي، فأحسست بدفء أنامله وخشونتها.

- خشيت فقدانك لوهلة، لكنك بخير الآن.

هبطت ذراعه ببطء وأخذ يدي اليمنى بين يديه، ورفعها إلى صدره.. ابتسمت، وسألته:

- هل انتهى كل شيء؟

- تقريبًا.. ثم أضاف:

- أعرف أن الوقت غير مناسب لأقول هذا. لكني أحبك كثيرًا وأظن أنك تبادلني نفس الشعور ولو قليلًا منه.

انسلت روحي مني وامتلأت عيناي بالدمع، وقلت:

- ولكن عمري قصير قد لا يتعدى الخمسين عامًا..

شعرت بأصابعه تطبق بخفة حول أصابعي وتمنحني أمان حقيقي قبل أن يردف:

- إذًا ليس أمامنا وقت لنضيعه.. فلنتزوج.

ثم...

يد قاسية هزت جسدي بعنف وعادت بي إلى الواقع.

إلى حيث الألم والخوف ينتظران.. يبدو أن الأحلام السعيدة ممنوعة هنا أيضًا.

فتحت عيني حقًّا تلك المرة، وبصعوبة بين جفوني رأيت جو يقف فوق رأسي بابتسامة ماكرة، وقال وفي عينيه شيء ظافر:

- هل ظننت أننا سنتركك فريسة لعزرائيل؟ أنتِ ثروة كبيرة لنا يا حبيبتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت ممددة على نفس السرير الأبيض وعظام فخذي اليسرى مهشمة. يضمدها شاش أبيض بالي ملطخ بالدم.. وكان ثمّة كيس شفاف مليء بالدم مُعلقًا بطرف قضيب معدني، وموصولًا بذراعي، ورأيت جو فوق رأسي كما لو كان شخصين متشابهين، فبِتُّ أرى اثنين من جو، مع ابتسامتين سمجتين، وأربع عيون ماكرة.. وسمعته يقول:

ستتعافين قريبًا.. عظامك قوية وستجد طريقها للتعافي.

أدركت فيما بعد أنهم سيتركون عظامي تلتئم بمفردها دون تدخل طبي كامل إلى أن تنتهي التجربة سواء بالنجاح أو الفشل.

زممت شفتي حتى لا أمكنه من مراده وهو أن يراني انتحب.

ولحسن الحظ أحسست بروحي تنسل مني من جديد، وتعيدني إلى تلك البئر العميقة التي خرجت منها، فقد ازداد الظلام فجأة وحجب عني جو وقرينه، واصطحبني معه إلى حيث الراحة والسكينة.

إلى الظلام...

لا أعلم كم مر من الوقت وأنا تائهة مشوشة أرى من حولي يتحركون على هيئة أشباح ولا يصلني منهم إلا صدى صوتهم.. وعندما استعدت ذاتي وعدت للحياة استقبلني جو مرة أخرى بأنفه القبيح وابتسامته الصفراء.. مد أصابعه، وراح يداعب شعري وهو يبتسم وأنا لا حول لي ولا قوة.

كنت متألمة، وواهنة، وفوق هذا عاجزة عن بث شكواي لأحد.. فلمن كنت سأشكو في هذا المستنقع القاسي؟ الممرضة السمراء التي تشرف على حالتي كانت تقوم بعملها بجدية وصرامة من دون أن تنظر إلي، وكلما ابتعدت وخرجت من الغرفة بخطواتها الرشيقة.. أغمضت عيناي، ورحت أناجي الموت.

يا الله برحمتك أستغيث.

كنت من شدة الألم أظن أنني لن أنام ولكني كنت أنام كثيرًا، وكأن في النوم أجد ملجأً آمنًا من خوفي وضعفي العظيم.

أتراني كنت أحلم حين جاءت أمي وجلست على حافة السرير تنظر إلي بعينين تفيضان حب وحنان! أم أن روحها زارتني حقًّا لتبشرني بالخلاص؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما استجمعت جزءًا من قوتي، وبِتُّ أرى الأشياء على طبيعتها، أحسست بحركة غير عادية تدور خارج الغرفة وداخلها.

هناك من يدخل ويغادر مسرعًا، ومن يركض ومن يعود..

رأيت الدكتور جو بدوره يدخل وهو متسع العينين زائغ النظرات يعبث بالأجهزة من حولي ويلملم أوراقًا وملفات، وعندما التقت أعيننا تبدلت نظراته ورأيت الشرر يتطاير من عينيه على نحو مفزع وغير متوقع، لكنه كظم غيظه خلف ستار من الاحتقار، وما لبث أن خرج كما جاء مسرعًا.

دخلت من بعده الممرضة السمراء ووقفت بالقرب من رأسي، لكنها هذه المرة نظرت إلي بعينين خضراوين متسعتين، وبدت لي أنها تخلصت من نزوعها المتبلد، وراحت تنظر إلي بعين الشفقة. فوجئت بها تفك الأحزمة من حولي تباعًا ثم تمرر منديلًا مبللًا بالماء البارد على وجهي وكذلك فعلت مع باقي جسدي، وكأنها تُغسل ميتًا قبل الدفن.. ثم رفعتني وأجبرتني على ارتداء زي رياضي أبيض ومعطف أسود ثقيل.

فكرت في الهرب وسخرت من الفكرة عندما وجدت نفسي غير قادرة على الحركة أو حتى الكلام فكنت بين يديها دمية تحركها كيفما شاءت. أحسست بها تضع آلة حادة في جيب معطفي، وقبل أن تتوارى عن ناظري سمعتها تقول بنبرة خافتة قرب أذني:

- تحملي قليلًا.. النجدة قادمة..

اتسعت عيناي في دهشة، واجتهدت على نفسي لأقول شيئًا، لكني ما استطعت، إذْ أنها لم تمنحني الفرصة، وسارت بعيدًا تاركة صدى صوتها متسيدًا عقلي ليمنحني من الأمل والقوة الكثير.

بعد ذلك بدقائق.. دخل مجموعة رجال مسلحين بالمسدسات، وحملوني حملًا كجذع شجرة خارجين بي من الغرفة.

وليتني ما خرجت ولا رأيت ما رأيت. مُحملة على سواعد الرجال سِرنا في ممر طويل تكاد تُجزم أن لا نهاية له..

على الجانبين غُرف متجاورة ومتشابهة، وقد قصدوا ألّا ترى واحدة منها الأخرى بأن جعلوا أبوابها غير متقابلة. في كل غرفة رجل أو امرأة أو فتاة أو شاب أو حتى طفل ممدد على سرير أبيض وغارق في دمه. وعندما دققت النظر أدركت أن أحدهم أطلق النار بدم بارد ويد ثابتة على رأس كل هؤلاء.

في إحدى الغرف رأيت طفلًا صغيرًا لا يتعدى عمره الخمس سنوات ممددًا على فراش عالٍ، ودمه الطاهر يغطي وجهه الصغير.. وبجواره على الأرض رأيت الممرضة السمراء ذات العيون الخضراء ممددة بدورها بعد أن استقرت رصاصة في منتصف جبهتها، ورجحت أنها حاولت أن تساعد الطفل كما فعلت معي، لكن الشخص الرحيم ليس له مكان بينهم.

بهتني بشاعة المنظر، وانسابت دموعي قهرًا وعجزًا.

مروا بي أمام غرفة مراقبة محفوفة بأجهزة إلكترونية وشاشات بيضاء، وفي لمحة خاطفة رأيت فيها عددًا من سيارات الشرطة المصرية تقف -كما يبدو- خارج المبنى.

يا الله هل حان موعد النجاة؟

لحظات، وتركوني أجلس على مقعد وثير في غرفة استقبال فاخرة. على اليمين، كان ثمة كنبة يجلس عليها ثلاثة أفراد، شاب نحيل طويل كعود قصب، له وجه طويل وأنف حاد وعينان مُغمضتان على الدوام، بجانبه جلست فتاة خمرية حسناء لا تتعدى الخمسة عشر عامًا، وكانت ترتجف بعنف في أحضان امرأة تلتصق بها، وخمنت من الشبه بينهما أنها أمها، وكانت الأخيرة ممتلئة القوام مثل ابنتها ولسانها لا يكف عن الدعاء وذكر الله.

على الجانب الآخر رأيت جو يقف مع رجل قصير القامة، له شعر أبيض مجعد ثقيل من الخلف وخفيف من الأمام وله شارب كث مما جعله أشبه ما يكون بـ"أينشتاين".

راح الرجلان يتهامسان في أمر جَدي، ورأيت نظارة جو تتزلق من فوق قصبة أنفه واتسعت عيناه، فيما راح العرق ينبت بغزارة على جبين شبيه "أينشتاين".

أغمضت عيني وأصغيتُ السمع، فعرفت من حديثهما بعض الأشياء الهامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

[23]

حسام

في صباح اليوم الأول عرضوني على النيابة فاتخذت من الصمت مهربًا، وكذلك فعلت في اليوم الثاني، لكن في صبيحة اليوم الثالث حدث شيء مريب، إذْ أن وكيل النيابة أمر بإخلاء سبيلي بلا أي إجراء قانوني، ولمحت في نظراته شيئًا من الخوف والقلق.

خرجت من القِسم، فرأيت مؤنس في انتظاري، صافحني بقوة وهو يتجنب نظراتي المتسائلة. وكان خجلًا كأنه يحس بالذنب. فما كدت أصافحه حتى سألته:

- أين نسرين يا مؤنس؟

فرد هامسًا:

- تعلم أنها معهم ولدينا بعض المعلومات عن أماكنهم لكنها غير كافية.

- لديكم!

- العالم كله يتحدث عن المشروع ويثور عليه، وتدميره الآن بات أمرًا حتميًّا.

سألته بصوت يتدفق مرتعشًا:

- مؤنس.. هل نسرين بخير؟

لم يرد وظل صامتًا يتجنبني بنظراته، سحبني لسيارة سوداء تنتظر بالجوار وأشار لي بالركوب، ظللت واقفًا انتظر الرد الذي لم يأت:

- ادخل أرجوك.. ليس هذا المكان الذي يسمح بالتحدث فيه.

امتثلت لطلبه على مضض، وبعد فترة وجيزة ركن السيارة بحذاء الرصيف وسمعت منه العجب.

كانت السلطات المصرية على علم بكل ما يدور على أرضها من مشروع علمي يفيد البيئة والبشرية من يوم مولده، ولم يخفَ عليها أن المشروع سيتطلب مساعدات بشرية وجسدية من أبنائها مقابل تعويض مالي يرضي الطرفين.. لكنها لا تعرف بالضبط ماهيته ومضمونة، وبسبب أزماتها ومشاكلها الداخلية قررت عدم التدخل طالما ليس منه خطورة ولا أحد يشتكي والكل راضٍ وسعيدٌ.

إلى أن قام مارتن لوكين وعلى أوسع نطاق بفضح مخططات الحلف الثلاثي في السيطرة على العالم سياسيًّا واقتصاديًّا تحت عنوان:

"الحرب العالمية الثالثة على الأبواب".

"الحلف الثلاثي يتحدى الجميع".

خشيت الحكومة على شعبها، وأدركت أن هذا السلاح سينقلب عليها قريبًا إن لم تبادر هي بتدميره وذاك بالتحالف مع باقي الدول الأخرى.

الحلف الثلاثي بدوره خشي على نفسه وعلى ضياع الحلم، فقرر تدمير كل مالم يعد له قيمة من ملفات وعينات، والعودة فقط بأفضل النتائج البشرية..

توقف مؤنس عن الكلام، وقرأت في صمته أن نسرين ربما تكون من النتائج التي سيتم التخلص منها أو النتائج القيمة التي سترحل معهم، وفي الحالتين هي في عداد الموت.

هتفت وقد امتلأت عيناي بالدمع:

- وماذا عن نسرين؟

- لا أحد يفكر في نسرين سوانا.. لكن لوكين وعد بأنه سيبذل قصارى جهده إن عرف أنها على قيد الحياة.

إن!!

الغضب، الألم، الجنون، الخوف، الضعف، كلها مشاعر مرت علي من قبل لكن لا شيء يضاهي ما أحسست به في تلك اللحظة. وكأن كياني وفكري انعدم، وكأن ذكرياتي وأحلامي وأمنياتي تقف على حافة زلزال مدمر لن ينجو منه أحد. الضعف هو آفة البشرية، هو الدافع الخفي لكل الأخطاء والذنوب التي نرتكبها.. هو من يقود المرء إلى الخضوع والخيانة والكذب وأحيانًا القتل أو الانتحار.. أما أنا فقادني إلى الصمت.

صمت أجوف كإنسان فقد ذاكرته وعلمه ودينه وحتى نفسه وبقيت بلا قوة مُحنطًا في مكاني تحت نظرات مؤنس الحائرة الفزعة لساعات طويلة.

في الربع الأخير من الليل، رن هاتف مؤنس فالتقطه ورد بلهفة، وعندما أغلق المكالمة هرع نحوي وهزني بعنف:

- حسام.. حسام.. نسرين حية.. نسرين حية.

اخترقت الكلمات قلبي كجهاز إنعاش أعادني إلى الحياة، وهتفت:

- أين هي؟

- لا أعرف التفاصيل، لكن صدرت الأوامر بالقبض عليهم، ولوكين أعطاني اسم لواء شرطة سيسمح لنا بمرافقته هناك.. هيا بسرعة الرجل ينتظرنا.. هيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"إن ساندت القوي فأنت مجرد تابع له، أما إن ساندت الضعيف ودمرت سلاح القوي، فأنت مع الضعيف صرت الحاكم".

[24]

نسرين

فطنت من الحوار القائم بين جو وشبيه أينشتاين أن العالم عرف بأمر المشروع واشتعلت ثائرته، فخشي الحلف على مشروعه الأثير، وقرر إتلاف كل مالم يعد له قيمة، والعودة فقط بما هو على قيد التجربة.

ولحسن الحظ أو الأصح سوء الحظ.. كنت أنا، وهذا الشاب المسكين، وتلك الفتاة البائسة أفضل نتائج لديهم.

وعرفت أيضًا أنهما يتجادلان على مصير المرأة الممتلئة الشاحبة. كان جو ينظر إليها شزرًا واحتقارًا، وشبيه أينشتاين يرمقها بعينين كأنهما فوهتا مسدسين ثاقبتين.

وكانا يتناقشان مناقشة هامسة علمية خالصة في البدء.. ثم احتدم النقاش وعلت أصواتهما.

جو يقول:

- هي بلا قيمة وعظامها بالية.

وشبيه أينشتاين يرد:

- حالتها جيدة نظرًا لسنِّها المتقدم، وأنا لم أنتهِ منها بعد.

ويثور جو ويقول إنه لن يسمح لتلك البدينة المتعفنة أن تخرج معه.

ويستشيط شبيه أينشتاين غضبًا، ويصيح:

- أنا المسئول عن حالتها، وأنا صاحب القرار.

ويتطور الخلاف، وتتبادل الكلمات الزاعقة الطائشة. وبعد لحظات من الشد والجذب في الحوار. أخرج جو مسدسه الفضي وأطلق ببرود رصاصة في منتصف رأس المرأة لينهيَ النقاش لصالحه.

صرخة هستيرية صاخبة أطلقتها الفتاة الصغيرة وهزت كياني، فصرخت معها.

انفجرت هي باكية، فبكيت معها.

فهل كنت أبكي على أمها أم على أمي أم على نفسي؟!

لا أدري..

ففي البكاء عدوى! تحسب أنك تبكي لتشارك الآخرين، وأنت في الأصل تبكي لأن باطنك حزين، فيه ذكرى أليمة، أو حلم منسي، أو عزاء قديم لم تكن قد انتهيت من البكاء عليه بعد.

سمعنا صوت أزيز عالٍ غريب يأتي من الخارج، فأجال جو ببصره فينا وفي المكان بقرف، ثم صاح في رجاله غير عابئ بنظرات شبيه أينشتاين النارية:

هيا خذوهم ولنرحل من هنا بسرعة.. كفانا إهدارًا للوقت.

على سواعد الرجال حملوني مرة أخرى وقد ازددت وهنًا على وهن.. وعلى غرار الشاب النحيل أطرقت برأسي وأغمضت عيني بقوة، كفاني رؤية دم ووجع وخوف.

عندما خرجنا من البوابة الخلفية للمبنى في ليلة بهيمية شديدة البرودة. فتحت عيني بصعوبة لا إراديًّا والتفتُّ إلى مصدر الأزيز، وتصلبت أطرافي عند رؤية طائرة هليكوبتر صغيرة تنتظرنا في أرض خلاء على بُعد خمسمائة متر من قدماي. كانت السماء فوقي سوداء مكفهرة لا نجم فيها ولا قمر، وبدت لي قريبة بما يكفي لأن ألمسها بمجرد أن أرفع ذراعي وأتمدد.

واكتشفت أيضًا أن المبنى الذي بقيت فيه ساعاتٍ وربما أيامًا هو مصنع قديم من طابقين في مكان نائي وسط حطام وأبنية قديمة ومصانع لا تعمل إلا بالنهار، وقد بدا أنه المكان الأمثل للتغطية على جرائمهم.

هيا.. هيا.

صرخ جو في الرجال، وتحركنا في جماعة نحو الطائرة مهرولين. فجأة بهرني ضوء ساطع يأتي من السماء، وبدا كأننا صرنا فجأة في وقت الظهيرة.

رفعت رأسي نحو مصدر الضوء، ورأيت طائرات حربية وعسكرية تحلق فوق رؤوسنا، ومنها انهال علينا أمطار بشرية ملثمة طوقت المكان في ثوان معدودة. اضطربت بسببها الوجوه وحدقت الأعين بارتياب في كل مكان.

في اللحظة التالية رأيت أحد رجال جو يحمل الفتاة على كتفه، ويهرع بها نحو الطائرة وهي ترفس وتستغيث.. تبعه شبيه أينشتاين ضاغطًا مسدسه على رأس الشاب الذي تحرك مستسلمًا لقدره، ومن بعده هرع جو، ثم أنا، محمولة على سواعد رجاله.

توقفوا.. توقفوا.

هتف رجل عسكري مصري في مذياع صاخب بلغة إنجليزية سليمة، ولكن لا أحد منهم توقف وكأنهم صم بكم عمي لا يفقهون.

هنيهة، وانطلقت رصاصة من قناص محترف فأصابت أحد رجال جو، وسقط على الأرض صريعًا.

عندئذ توقف جو واستدار مذهولًا، وتلذذت أنا قليلًا برؤية الهلع والصدمة في عينيه قبل أن أشعر بجسدي يهبط على الأرض وأحدهم يدفعني نحو جو الذي أحاط خصري بذراعيه، وأدار جسدي بحيث أصبحت بينه وبين بقية رجاله ورجال الشرطة.

شعرت بفوهه المسدس تضغط على جانبي وجو يسحبني ببطء نحو الطائرة.

"استسلموا وإلا سنطلق النيران.. لا مجال للهرب".

قال العسكري في المذياع بنبرة حازمة.. وكنا قد اجتزنا تقريبًا معظم المسافة، ولم يبقَ على الوصول للطائرة سوى القليل.

أعاد الصوت تهديده بإلحاح من دون جدوى.

لحظات من الانفعال والعصبية والتوتر والتساؤل والقلق مرت علينا كدهر لا نهاية له قبل أن يصم الأذان طلق ناري متبادل بين الطرفين.. فوجئت بكل من كان يحملني قبل قليل ممددًا على الأرض والدم ينفجر من كتفيه وساقيه، ولم يبقَ مع جو واقفًا سواي..

لوهلة ظننت أن أحدهم سيطلق النار على رأسه وينهي الأمر كما يحدث في النهايات السعيدة.. ولكن هيهات! فالكل كان يخشى إطلاق النار على الطائرة والباحث "جو" في انتظار الأوامر التي لم تأتِ بعد!

بخطوات وئيدة كنت أتراجع مع جو إلى الخلف في اتجاه الطائرة، وكنت على يقين من أنني لو خطوت خطوة واحدة داخل طائرتهم البيضاء ستكون شهادة موتي مكتوبة ومختومة بالتأكيد.. تناهى إلى سمعي صوت "تيتة زبيدة" وهي تقول "لا تدعي أحدًا يخدعك ويستغل ضعفك أو عنفوان شبابك تحت أي ظرف". وعندها ومن دون حسبان للخطأ أخرجت السكين سريعًا، السكين الذي دسته السمراء في جيب معطفي، وشكرتها في سري ودعوت لها بالرحمة والغفران أينما تكون.. ثم غرزت السكين في فخذ جو بكل ما بقي لي من قوة وثبات.

ليتألم كما تألمت، ويصرخ كما صرخت..

أحسست بقبضته تتراخى وجسده يسقط على ركبتيه لأسقط معه منكفئة على وجهي منهوكة القُوَى..

تناهى إلى سمعي صوت الطائرة وهي تحلق مبتعدة محملة بشبيه أينشتاين ومعه الفتاة الصغيرة والشاب الهزيل نحو مصيرهم المجهول. وسمعت الرجل في المذياع يقول "توقفوا.. توقفوا... سنطلق النيران.. سنطلق النيران".

لكن لا أحد أطلق شيئًا، وابتعدت الطائرة رويدًا رويدًا حتى اختفى أزيزها تمامًا.

وفي قلب كل تلك الأصوات العالية والمتداخلة، وعلى الرغم من الألم والبرد والخوف الذي يطوقني.. التقطت أذني صوت حسام وميزته عن بقية الأصوات.

ربما هو الهذيان الأخير..

- نسرين.

عاد الصوت ليؤكد على وجوده. رفعت رأسي قليلًا، ومن بعيد رأيت حسام يتصارع ويتشاجر مع رجال الشرطة الذين بلا مبرر يحيلون بينه وبيني..

فهل كانوا يخافون علي أنا أم على "جو"؟!

فليكن..

استندت على مرفقي، ونهضت على أربعة ثم على اثنين متحاملة على ساقى المصابة.. كنت أرى حسام يتصارع مع الرجال وأعلم أنه لن يمر لأنهم لن يتركوه يفعل، فكان عليّ أنا المصابة بشدة أن أتحامل على نفسي وأركض نحوه أو بالأحرى أزحف إليه.

وما كدت أن أفعل وأجتاز ربع المسافة حتى صمت كل شيء من حولي وتسمر. ورأيت حسام في مكانه ينظر من فوق كتفي إلى شيء ما، وقد أصابه الهلع الشديد. تطلعت إليه أكثر، وأكثر، وفي عينيه رأيت المشهد خلف ظهري مُكبرًا ومُضخمًا.

رأيت نفسي مُشعثة، شاحبة، أتصبب عرقًا رغم برودة الجو. ومن خلفي كان جو يجلس بركبتيه على الأرض.. وفي يده مسدس فضي له ماسورة طويلة ومقبض أسود لا يرحم. وقبل أن يستوعب أحدهم المشهد أو يصدر الأوامر. انطلقت الرصاصة. واخترق الألم جسدي واختل معها اتزاني فارتميت على الأرض وتمددت..

صرخ حسام:

- نسرين..

أحسست بشيء دافئ يسري على ظهري ويغمرني.. ومن زاوية عيني رأيت الكل يركض وحسام معهم مفتوح العينين، شاحب اللون على إثر صوت طلق ناري آخر من ذات المسدس الفضي تردد في المكان، لكن تلك المرة اخترق رأس جو ليهرب من الاعتراف بكل ما يعرفه من أسرار وخبايا.

نَزلت على الأرض، فجأة، قطرة ماء ثم أخذ المطر يتهاطل.. وامتزج ماؤه البارد بدمائي النازفة الحمراء.

ركع حسام بجانبي وسحبني بين ذراعيه بحنو بالغ. كانت يده القوية الدافئة تطوقني بإحكام فاستسلمت لها، وقد تراءى لي بقعًا حمراء وزرقاء وأخذت تبتلعني.

كان الظلام يزحف نحوي وكل ما في جسدي يرتجف. تأملت الأجواء خلف ظهر حسام. فرأيت رجالًا وقيادات لن تتركني أعيش بسلام..

"فلعل هذه الرحمة والسلام الحقيقي الذي تضرعت إليهما".

قلت لنفسي، بينما أنا أرتجف من الخوف والبرد إلى حد لا يحتمل.. لكن عندما نظرت إلى عين حسام ورأيت نظراته المتلهفة المرتاعة.. أحسست أن خوفي يتلاشى، مثل تبدل المد والجزر، ووددت لو نطق لساني وقلت له شكرًا لأنك وفّيْت بوعدك.. لقد منحتني الأمان والصدق وعليهما الحب.

لكن عوضًا عن ذلك سبقني هو بصوته المتهدج:

- لا تتركيني أرجوك.. أنا.. أنا أحبك.

وبكى..

أحسست بدموعه الساخنة تنساب على خدي بغزارة فابتسمت.. وبكل رضا وسعادة أغمضت عيني.

يقولون إنه من الأفضل أن تكون ميتًا حيًّا، على أن تكون حيًّا ميتًا. وفي قلب وعقل حسام سنبقى أنا وأمي أحياء.. وهذا يكفينا.

أنا الآن سعيدة..

سعيدة للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء..

تنويه

[1]
نسرين

[2]
حسام

[3]
نسرين

[4]
بداية كل شيء

[5]
حسام

[6]
نسرين

[7]
نملة المجاري

[8]
جُمعة الغضب

[9]
نسرين

[10]
سيدة القصر

[11]
حسام

[12]
نسرين

[13]

حسام

[14]
نسرين

[15]
انتصار الأهوج

[16]
بحر الهوى

[17]
حسام

[18]
نسرين

[19]
حسام

[20]
نسرين

[21]
حسام

[22]
نسرين

[23]
حسام

[24]
نسرين